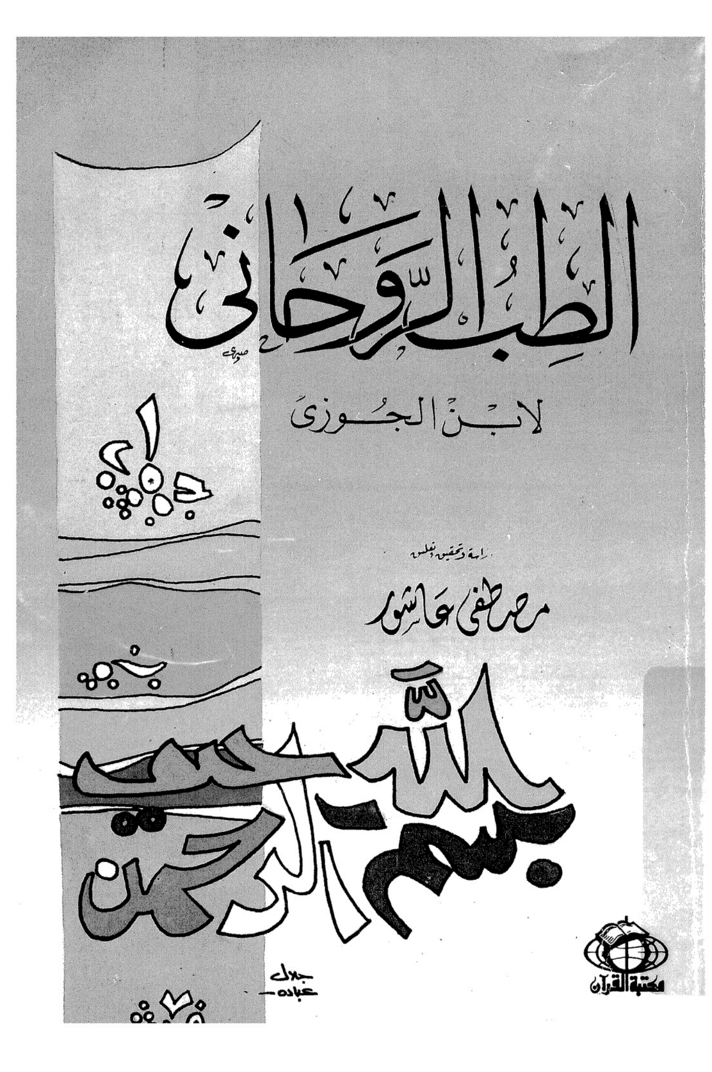


الطب الروحاني
لابن الجوزي
دراسة وتحقيق وتعليق
مصطفى عاشور
بسم الله الرحمن الرحيم
جلال عباده
مكتبة القرآن



لابن الجوزي

دراسة وتحقيق وتعليق

مصطفى عاشور

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوي - بولاق
القاهرة - ت: ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١

جميع الحقوق محفوظة
لمكتبة القرآن



دراسة التحقيق

أولاً : المؤلف : الحافظ ابن الجوزى :

* ولادتـــه .
* بيئتــه ونشأته .
* مكانته وأهميته .
* مؤلفــاته .

ثانياً : الكتاب : الطب الروحـانى :

* مضمونـه وأسلوبـه .

منهج تحقيقــه .

أولا : المؤلف
الحافظ ابن الجوزى

* **ولادته ونسبـــه :**

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن حمادى ابن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزى الملقب بجمال الدين ، وينتهى نسبه إلى الخليفة الراشد أبى بكر الصديق والجوزى نسبة إلى محلة فى البصرة تسمى « محلة الجوزى » .

وقد ولد فى درب حبيب فى بغداد سنة ٥١٠ هـ تقريباً . واختلف فى تاريخ ولادته بين سنة ٥٠٨ وسنة ٥١٢ هـ

* **بيئته ونشأتـه :**

نشأ ابن الجوزى يتيماً ، فقد توفى أبوه وله من العمر ثلاث سنين فكفلته أمه وعمته وأخذت هذه الأخيرة بيده واعتنت به منذ الطفولة . ولما شب وترعرع حملته سنة ٥١٦ هـ إلى مسجد خاله المحدث اللغوى الفقيه « أبى الفضل محمد بن ناصر البغدادى » المتوفى سنة ٥٥٠ هـ فاعتنى به اعتناءً فائقاً ، وكان أول معلم له ، وحفظ فى هذه المرحلة القرآن الكريم ، وسمع الحديث الشريف ، ولاسيما مسند ابن حنبل ، والترمذى ، والبخارى ، ومسلم . وتعلم اللغة والأدب ، وتمرن على الوعظ ، وسمع (تاريخ بغداد) للخطيب . ونظر فى كثير من العلوم المعروفة فى عصره .

*** مكانته وأهميته :**

برع ابن الجوزى فى عديد من العلوم ، وأجاد فى الخطابة والوعظ ، وصنف فيهما كتباً كثيرة . وتألق فى التاريخ والسير حتى صار مؤرخاً حاذقاً ، كما ألف فى التفسير والحديث ؛ حتى لُقب بالحافظ والمؤرخ . ولعل النظرة الخاطفة على كتبه تظهرنا للوهلة الأولى على مدى علمه وسعة معرفته وقدرته على التأليف .

*** محنتــه :**

وقد نالته فى أواخر عمره محنة . فقد وشوا به إلى الخليفة فى أمر اختلف فى حقيقته وذلك فى الصيف. فبينما هو جالس فى داره فى السرداب يكتب جاءه من أسمعه غليظ الكلام وشتمه وختم على كتبه وداره وشتت عياله فلما كان أول الليل حملوه فى سفينة وأحضروه إلى واسط فأقام خمسة أيام ما أكل طعاما وهو يؤمئذ ابن ثمانين سنة وحبسوه فى دار بواسط وجعلوا عليها بوابا وكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه ويطبخ ويستقى الماء من البئر فبقى كذلك خمس سنين وكان من جملة أسباب القضية أن الوزير ابن يونس قبض عليه فتتبع ابن القصاب : أصحاب ابن يونس وكان الركن عبدالسلام بن عبدالوهاب ابن عبدالقادر الجيلى المتهم بسوء العقيدة واصلا عند ابن القصاب فقال له : أين أنت عند ابن الجوزى فهو من أكبر أصحاب ابن يونس وأعطاه مدرسة جدى وأحرقت كتبى بمشورته وهو ناصبى من أولاد أبى بكر .

وكان ابن القصاب شيعيا فكتب إلى الخليفة وساعده جماعة ولبسوا على الخليفة فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام وكان ابنه محيى الدين يوسف قد ترعرع وقرأ الوعظ وكان صبيا ذكيا فوعظ وتكلمت أم الخليفة فى خلاص ابن الجوزى فأطلق وعاد إلى بغداد .

* **وفاتــه :**

قال سبطه أبو المظفر : جلس رحمه الله يوم السبت سابع رمضان تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخى وأنشد أبياتاً وهى :

الله أسأل أن يطول مدتى وأنال بالأنعام ما فى نيتى
لى همة فى العلم ما من مثلها وهى التى جنبت النحول هى التى
كم كان لى من مجلس لو شبهت حالاتـه لتشبهت بالجنــة

ونزل فمرض خمسة أيام وتوفى ليلة الجمعة بين العشاءين فى الثالث عشر من رمضان واجتمع أهل بغداد وغلقت الأسواق وحمله الناس إلى مقبره أحمد بن حنبل وشيعه خلق كثير وكان قد اوصى أن يكتب على قبره :

يا كثير الصفــح عمــن كــثر الـــذنب لديــه
جاءك المذنب يرجــو الـ ـعفو عن جــرم يديــه
أنا ضــيف وجــزاء الــ ضيــف إحســـان إليـــه

* **ابن الجوزى يتحدث عن نفسه :**

يقول ابن الجوزى عن نفسه فى كتابه « صيد الخاطر » :

« إننى رجل حبب إلىّ العلم من زمن الطفولة ، فتشاغلت به ، ثم لم يحبب إلىّ فى واحد منه ، بل فنونه ، ثم لا تقتصر همتى فى فن على بعضه ، بل أروم استقصاءه ، والزمان لا يسع ، والعمر أضيق ، والشوق يقوى ، والعجز يقعد ، فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات » .

ومما يقوله عن نفسه أيضاً قوله :

« كنت فى زمان الصبا آخذ معى أرغفة يابسة ، وأخرج فى طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيش ، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، وعين همتى لا ترى إلا لذة تحصيل العلم » .

* **مؤلفاته :**

ترك لنا الحافظ ابن الجوزى كثيراً من المؤلفات فى عديد من الفنون والعلوم ، نذكر منها :

١ – صيد الخاطر .
٢ – تلبيس إبليس .
٣ – بر الوالدين .
٤ – الشفاء فى مواعظ الملوك والخلفاء .
٥ – الوفاء بأحوال المصطفى .
٦ – أخبار النساء .
٧ – المدهش فى علوم القرآن والحديث .
٨ – الأذكياء .
٩ – أخبار الظرفاء .
١٠ – التبصرة والتذكرة .
١١ – أخبار الحمقى والمغفلين .
١٢ – بستان الواعظين .

ثانياً : الكتاب

الطب الروحانى

* **مضمونه وأسلوبه :**

يتناول هذا الكتاب موضوعاً هاماً وحيوياً ، ألا وهو طب النفوس والأرواح ؛ فمما لاشك فيه أن طب الأرواح أسمى من طب الأبدان ؛ لأن طب الأبدان مهمته إصلاح الصور والأعضاء ، وطب النفوس غايته إصلاح المعانى ، وهى أشرف . وقد تعرض هذا الكتاب لكثير من المعانى مثل : الهوى ، والشهوة ، والكسل ، والبخل ، وكيفية معاملة الناس ، وما إلى ذلك من الموضوعات والمعانى الهامة .

وأسلوبه سهل ، بسيط ، يفهمه كل من له قدر متوسط من الثقافة والمعرفة . وقد كان لجهدنا فى تنظيمه وترقيمه دور بارز فى زيادة بساطته ووضوحه وتقريبه إلى كافة الأذهان والفهوم .

* **منهج التحقيق :**

تجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب قد صدر من قبل عدة مرات ، ولكن يلاحظ على تلك الطبعات أنها مليئة بالأخطاء والتصحيفات ، كما ينقصها الترتيب والتنظيم ، ويغلب عليها سوء الإخراج والاضطراب .

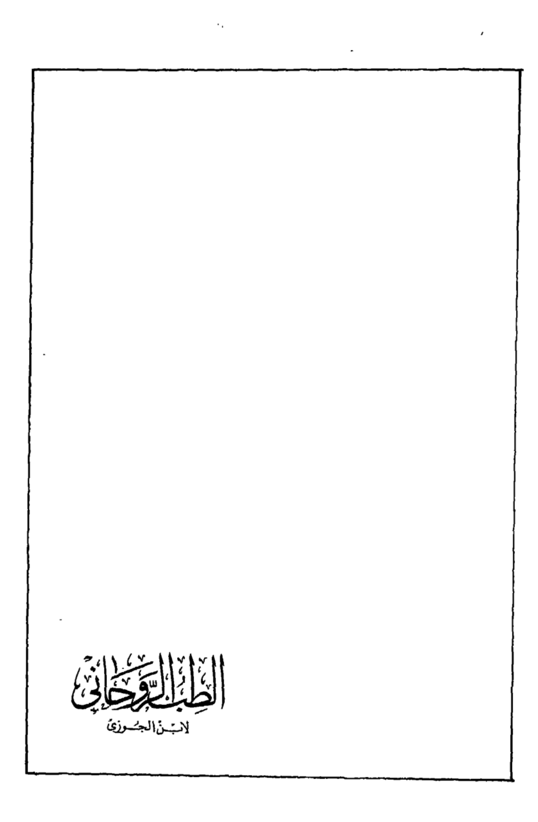
ولذا فقد عقدنا العزم على إعادة إخراجه وتحقيقه ، والنسخة التى رجعنا إليها واعتمدنا فى التحقيق هى نسخة مكتبة جامعة القاهرة المقيدة تحت رقم ١٧٦١٢ ، وهى تتميز بوضوح الخط وجودته ، وتتكون من ٧٠ صفحة وكل صفحة بها حوالى ١٦ سطراً ومتوسط كل سطر ١٢ كلمة ، وقد راعينا فى التحقيق قواعد الكتابة والإملاء الحديثة ، وضبطنا النص ، وخرجنا الآيات والأحاديث النبوية ، وشرحنا فى الهوامش الغامض من العبارات والألفاظ . وقد قمت بعمل دراسة عن ابن الجوزى ضمنتها مولده ونشأته وأهم مؤلفاته .

والله تعالى أسأل أن يتقبل منى ما بذلته من جهد فى هذا العمل ، وأن يغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا ؛ إنه سميع الدعاء .

مصطفى عاشــور

القاهرة فى ربيع الآخر سنة ١٣٠٧ هـ
يناير سنة ١٩٨٧ م




الطب الروحاني
لابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتـاب

الحمد لله الذى قدر الداء ، ودبر الدواء ، وكم وهب لمن أشفى[1] على شفا[2] هلكة الشفاء ؛ أحمده على كل ما صدر عن قضائه وجاء ، وأعلق بفضله ، ومنه الرجاء .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، نوَّر الفضاء فضاء .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أشرف من وطىء الأرض والسماء ، وعلى أصحابه وأزواجه صلاة تعم الأتباع والأولياء ، وسلم تسليماً كثيراً .

لما جمعت كتاباً فى طب الأبدان وسميته (لقط المنافع) آثرت أن أشفعه بكتاب فى طب النفوس أسميه (الطب الروحانى) ؛

---

(١) (أشفى) على الشىء : اقترب منه ، يقال : أشفت الشمس على الغروب، وأشفى الرجل على الموت .

(٢) (الشفا) من كل شىء : حرفه . وفى التنزيل العزيز : ﴿ **وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** ﴾ .

فإن طب الأبدان إصلاح الصور ، وطب النفوس إصلاح المعانى ؛ وهى أشرف . ..

وإلى الله سبحانه الرغبة فى النفع العاجل ، والأجر الآجل ؛ إنه جدير بتبليغ الآمال من منّه .

الغرض من وضع الكتاب :

اعلم أن جميع ما وضع فى الآدمى إنما وضع لمصلحته ، إما لاجتلاب نفع كشهوة المطعم ، أو لدفع ضر كالغضب ؛ فإذا زادت شهوة المطعم صارت شرهاً فآذت ، وإذا زاد الغضب أخرج إلى الفساد .

وهذا الكتاب موضوع لاستعمال قانون الصواب من خلال الباطن ، وكف الهوى عن المؤذى منها ، وعلاج ما خرج لموافقة الشهوة عن القانون الصحيح . وقد قسمته ثلاثين باباً .



* تقسيم الكتاب :

الأول	: في فضل العقل .
الثانى	: فى ذم الهوى .
الثالث	: فى الفرق بين ما يرى العقل وما يرى الهوى.
الرابع	: فى دفع العشق عن النفس .
الخامس	: فى دفع الشره .
السادس	: فى رفض رياسة الدنيا .
السابع	: فى دفع البخل .
الثامن	: فى النهى عن التبذير
التاسع	: فى بيان مقدار الاكتساب والانفاق .
العاشر	: فى ذم الكذب .
الحادى عشر	: فى دفع الحسد .
الثانى عشر	: فى دفع الحقد .
الثالث عشر	: فى دفع الغضب .
الرابع عشر	: فى دفع الكبر .
الخامس عشر	: فى علاج العجب .
السادس عشر	: فى علاج الرياء .
السابع عشر	: فى دفع فضول الفكر .
الثامن عشر	: فى دفع الحزن .
التاسع عشر	: فى دفع الهم والغم .
العشرون	: فى دفع الخوف والحذر من الموت .
الحادى والعشرون	: فى دفع فضول الفرح .

* * *

(١) فضل العقــل

قد اختلف الناس فى ماهية[1] العقل ، ومسكنه ؛ وأطالوا ، وقد رويت فى فضله أحاديث كثيرة . وقد ذكرنا جملة من ذلك فى كتابنا المسمى (بذم الهوى) ، فلا نعيدها ، بل نذكر ههنا جملة ، فنقول :

إنما يعرف فضل الشىء بثمرته ، ومن ثمرات العقل معرفة الخالق سبحانه ؛ فإنه استدل عليه حتى عرفه ، وعلى صدق الأنبياء حتى علمه ، وحثَّ على طاعة الله ، وطاعة رسله ، ودبر فى نيل كل صعب حتى ذلل البهائم ، وعلمه صناعة السفن التى بها يتوصل إلى ما حال بيننا وبينه البحر ، واحتال على طير الماء حتى صيدت ، وعينه أبداً تراقب العواقب ، وتعمل بمقتضى السلامة فيها والعوز ، وبترك العاجل للآجل ، وبه فضل الآدمى على جميع الحيوان الذى فقده ، وبه تأهل الآدمى لخطاب الله سبحانه وتكليفه ، وبه يبلغ الإنسان غاية ما فى جوهر مثله أن يبلغه من خير الدنيا والآخرة من العلم والعمل .

وكفى بهذه الأشياء فضيلة لا ببعضها . فليكتف بهذه الجملة عن الإطالة .

---

(١) تطلق الماهية غالباً على الأمر المتعقل ، مثل المتعقل من الإنسان ، وهو الحيوان الناطق ، مع قطع النظر عن الوجود الخارجى . والأمر المتعقل من حيث إنه معقول فى جواب ما هو يسمى : ماهية ، ومن حيث ثبوته فى الخارج يسمى : حقيقة ، ومن حيث امتيازه عن الأغيار : هوية ، ومن حيث حمل اللوازم له : ذاتاً ، ومن حيث يستنبط من اللفظ : مدلولاً ، ومن حيث إنه محل الحوادث : جوهراً ، وهكذا .

(٢) فى ذم الهوى

الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ؛ فلا يذم هذا المقدار إذا كان المطلوب مباحاً ، وإنما يذم الإفراط فيه . فمن أطلق ذم الهوى ، فلأن الغالب فيه ما لا يحل أو يتأول المباح بإفراطه .

واعلم أن النفس منها : جزء عقلى ، فضيلته الحكمة ، ورذيلته الجهل ؛ وجزء غضبى فضيلته الحدة ، ورذيلته الجبن ؛ وجزء شهوانى فضيلته العفة ، ورذيلته إطلاق الهوى .

فالصبر عن الرذائل فضيلة للنفس ، بها يحتمل الإنسان الخير والشر ؛ فمن قل صبره ، فحكم هواه على عقله ، فقد صير المتبوع تابعاً ، والمأموم إماماً ؛ فلا جرم أن جميع ما يرومه ينعكس عليه ؛ فإنه يتأذى من حيث قدر النفع ، ويحزن من حيث أراد الفرح .

وإنما فضل الآدمى على الحيوان البهيمى بالعقل الذى أمر بكف الهوى ، فإذا لم يقبل قوله ، وحكم الهوى ، كان الحيوان البهيمى أعذر من الآدمى .

ويدل على فضل خلاف الهوى تقديم كلب الصيد ، وإكرامه على أبناء جنسه ؛ وذلك لمكان مخالفته للهوى من حبس ما صاده على صاحبه دون أكله خوفاً من عقوبته أو شكراً لنعمته . واعلم أن الهوى فى ضرب المثل كالماء الجارى الحديد الجرية ينحدر بسفينة الطبع ، والعقل مراد ، فإن عقل المراد وتوانى مر الماء بالسفينة .

وينبغى للعاقل أن يعلم أن مقاساة الشدة فى خلاف الهوى أسهل مما يلقى فى موافقته ، وأقل ما يلقى موافقو الهوى أنهم يصيرون إلى حالة لا يلتذون به فيها ، ثم لا يصبرون عنه ؛ لأنه يصير بالإدمان عادة ، كمدمنى الجماع وشراب الخمر .

والتفكر فى هذه الأشياء تهون على الإنسان رفض الهوى . ومما يهون الهوى أن يتفكر الإنسان فى نفسه ، فيعلم أنه لم يخلق لموافقة الهوى ، فإن الجمل يأكل أكثر منه ، والعصفور يسافد[1] أكثر ، والبهائم مطلقة فى محبوباتها من غير حصر ولا يشوبهم غم . فلما نقص حظ الآدمى من الشهوات ، ثم شيبت[2] بالنقص علم أنه لم يخلق لذلك .

وقد بينت لك أن المذموم من الهوى ما أفرط ، وهو الذى يحكم عليه العقل بالخطأ . فأما ما تهواه مما تضطر إلى تناوله ويعينها على إصلاح حالها فممدوح لا مذموم .

(٣) الفرق بين ما يرى العقل وما يرى الهوى

اعلم أن الهوى يدعو إلى اللذة من غير فكر فى عاقبته ، وقد يعلم أن تلك اللذة تجلب ألما يربو عليها ، وتمنع صاحبها نيل أمثالها ، والهوى معرض عن النظر فى ذلك ، وتلك حالة البهائم إلا أن البهائم أعذر ؛ لأنها لا ترى العاقبة . ولا ينبغى للعاقل أن ينزل عن رتبة بها شرف وارتفع إلى مقام من حط .

---

(١) (سَفَدَ) ذكرُ الحيوان أنثاه ، وعلى أنثاه – سفداً: نزا عليها .
(٢) (شاب) الشئَ غيره : خالطه . فهو شائب ، والشيء مشوب .

فأما العقل ، فإنه يراقب العواقب ، وينظر فى المصالح ، فمثله كمثل الرجل الحازم ، والطبيب الناصح ؛ ومثل الهوى كمثل الصبى الجاهل ، والمريض الشره .

فينبغى للبيب إذا اختلف عقله وهواه، وقد علم أن العقل عالم ناصح : أن يستشيره وأن يصبر على مضض ما يأمر به . ويكفيه فى إيثار العقل علمه بفضله . فإن رام زيادة دليل على صحة قوله ، فليتأمل عواقب ما يجنيه الهوى على أربابه : من هتك الأستار ، والفضيحة بين الخلق ، وحط المنزلة ، وفوت الفضائل ، وهل وكس[1] جاه ، أو ذل عزيز ، أو صيد طائر ، إلا بموافقة الهوى . ومما يوضح له الدليل أن يقدر بلوغ غرضه قبل نيله ، ثم ينظر فى حاله بعد انقضاء لذته وما اكتسبه ، ويزن الالتذاذ بالجناية ، فيعلم حينئذ أنه قد خسر أضعاف ما ربح ، وقد أنشدوا فى ذلك :

كم لذة مستفزة فرحاً   قد انجلت عن غموم آفات
كم شهوات سلبن صاحبها   ثوب الديانات والمروآت

واعلم أن الإنسان إذا وافق هواه ، وإن لم يضره ، وجد من نفسه ذلاً لمكان أنه مغلوب . وإذا قهر هواه ، وجد فى نفسه عزاً لأجل أنه غالب .

ثم أنت ترى الناس إذا شاهدوا زاهداً تعجبوا منه ، وقبلوا يده ، وما ذاك إلا لأنه قوى على ترك ما ضعفوا عنه من مخالفة الهوى .

---

(١) (وَكَسَ) الشيء – (يكس) وَكْساً : نقص .

(٤) دفع العشق عن النفس

هذا مرض قد تلف به خلق كثير ، تارة فى أبدانهم ، وتارة فى أديانهم ، وتارة فيهما . ولأجله وضعت كتاب (ذم الهوى) ، وقد ذكرت هناك من الأدوية ما يكفى ويشفى ، إلا أنى أذكر ههنا جملة لئلا يخلو الكتاب مما قد رسم فيه ؛ فأقول :

من احتمى عن التخليط بغض البصر ، وكف النظر ، سلم من هذا المرض ، فإذا لم يحتم حصل عنده من المرض بمقدار تخليطه ، فإن تدارك الأمر قبل استحكامه فربما نفع الدواء ، وإن تركه إلى أن يستحكم لم ينفعه علاج .

واعلم أن مجرد النظر إلى المستحسن لا يكاد يوجب العشق ، وإنما إذا ازداد النظر يحصله ، ويعينه قوة الطمع ، فيساعده الشباب والشهوة . فمن أراد العلاج ، فليبادر به قبل أن يستحكم المرض ، وذلك بقطع السبب والصبر فى ذلك على المضض ، فإن اليأس أعظم دواء ، وأقوى معين على ذلك خوف الله تعالى ، وزجر النفس الآبية عن مواقف الذل ، وتذكر عيوب المحبوب الباطنة ، كما قال ابن مسعود : إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مثالبها[1] .

ومتى كان المحبوب مقدوراً عليه مباحاً كان الجمع بينهما أعظم الدواء ، وإلا فالنكاح فى الجملة يخفف المرض ، واستجداد[2]

(١) (المثالب) : مفردها « المثلبة » ، وهى العيب .

(٢) أى تجديد الزوجات .

الزوجات ، واستحداث الجوارى ، وطول السفر ، والتفكر فى خيانة المحبوب وتجنيه ، والنظر فى كتب الزهد ، وذكر الموت ، وعيادة المرضى ، وزيارة القبور .

ثم يتفكر فى وجود غرضه وانقضائه ، وسآمته مع الزمان ، وتغير الخلق ؛ وليتصفح العبر فى نفسه وغيره ؛ فلعل غيره يأخذ بيده ، فينتاشه[١] من هذه الهوة ، ويجتذبه من هذه الورطة ، كما روينا أن رجلاً كان يهوى غلاماً ، فنظر يوماً فى المرآة ، فرأى طاقة[٢] شيب ، فهجر الغلام ، فكتب الغلام إليه :

مالى جفيت وكنت لا أجفى ودلائل الهجران لا تخفى
وأراك تشربنى فتمزجنى ولقد عهدتك شاربى صرفاً[٣]

فكتب إليه فى الجواب :

أتصابى مع الشمـط سمتى خطة شطط[٤]
لا تلمنى على جفا ى فحسبى بما فرط
أنا رهن بما جنيـ ـت فذرنى من الغلط
قد رأينا أبا الخلا ئق فى زلة هبط

(٥) دفع الشره

اعلم أن الشره إذا أطلق انصرف إلى موافقة الهوى فى المطاعم ،

---

(١) أى فينقذه من هذه الهوة .
(٢) طاقة شيب : أى شعبة أو حزمة من شعر قد نالها البياض .
(٣) (شراب صرف) : أى شراب خالص نقى غير مخلوط بشىء .
(٤) (الشمط) : هو اختلاط بياض الشعر بسواده ، والجمع : أشماط ، وشماط . و(الشطط) : هو التجاوز والتعدى .

وكم قد أوجبت من أمر فزالت بأربابها إلى التلف ، وهى علة تتولد عن قوة النفس الشهوانية .

قال الحارث بن كلدة : الذى قتل البرية ، وأهلك السباع فى البرية ، إدخال الطعام على الطعام . وقال غيره : لو قيل لأهل القبور ما كان سبب آجالكم لقالوا : التخم .

وساق بسنده إلى الحسن ، قال : قيل لسمرة : إن ابنك لم ينم الليلة !

قال : أبشماً ؟[1] .

قيل : بشماً .

قال : لو مات لم أصل عليه .

البشم فى الطعام والبغر[2] فى الماء .

قال رجل لرجل يعيره : مات أبوك بشماً ، وماتت امك بغراً !

وعن عقبة الراسبى ، قال : دخلت على الحسن ، فوافقته يتغدى ، فقال : هلم .

فقلت : أكلت حتى لا أستطيع أن آكل .

فقال : سبحان الله ويأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل ؟!

« **فصل** » واعلم أن العاقل يجب أن يأكل ليبقى والجاهل يؤثر أن يبقى ليأكل ورب لقمة منعت لقمات وكانت سبب الهلاك وقد بينت عيوب

---

(١) (بشم) من الطعام - بشماً : أكثر منه حتى أتخم وسئمه . فهو بَشِمٌ . و (أبشمه) الطعام : أتخمه .

(٢) (البغر) : إذا شرب فلم يَرْوَ فأخذه داء من الشرب

الشبع فى كتاب « لقط المنافع » وإنما المقصود ههنا زجر النفس الشرهة لتكف الكف عما يؤذيها . وفيما ابتدأت به من ذكر فضل العقل وذم الهوى ما يكفى فى الامتناع من كل رذيلة وهجر ما يخاف عواقبه .



فصل : الشره فى الجماع

وقد يكون الشره فى الجماع ، وقد بينت فى كتاب اللقط : أنه كلما كثر استعماله امتنعت أوعية المنى ، فانجذب إليها غذاء ليس بنضيج ، واستلبت قوى الأصول ؛ وهى الدماغ ، والقلب ، والكبد ، فتبرد الحرارة الغريزية ، ويسرع لذلك الهلاك .

ثم إن صورة الوطء تنبو[1] عنها النفوس الشريفة ، إلا أن يدفع شر محتقن أو يطلب ولد ، فأما أن يصير عادة يكون بالتمتع بنفس الفعل ، فتلك مزاحمة البهائم .

فصل : الشره فى جمع المال

وقد يقع الشره فى جمع المال ، وهو من الجنون البارد إذا زاد على قدر الحاجة ؛ لأن المال لا يراد لنفسه ، وإنما يراد لغيره . ولا ينكر على من جمع مالا غنى للنفس عنه ، فاستغنى به عن الناس ، وأغنى أولاده ، وبذل بعضه للمحتاجين .

إلا أنه ينبغى للعاقل بعد حصول المقدار والمتوسط من ذلك أن لا يضيع الزمان الشريف ، وأن يخاطر بالروح التى لا قيمة لها فى الأسفار وركوب البحار ، وما أحسن قول الشاعر :

---

(١) (تنبو) عنها : أى تعرض عنها وتنفر .

ومن ينفق الأيام فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وكم قد رأينا وسمعنا عن أقوام يقترون على أنفسهم فى الإنفاق ، ويركبون مع كبر السن البحار ليربحوا بزعمهم ، فهلكوا فى أسفارهم ، وما بلغوا بعض أغراضهم .

وهذا المرض ينبغى أن يداوى بتلمح المقصود من المال ، والموازنة بين حصوله وبين المخاطرة بأنفس نفيس ، وهى النفس والوقت ، فمن شاور عقله فهم المراد ، ومن غلبه مرض الحرص هلك فى بيداء الشره ، ولا وارث إلا المطية والرحل .

فصل : الشره فى الشكليات

وقد يقع الشره فى فنون ما يلتذ به من الأبنية المنقوشة ، والخيل المسومة ، والملابس الفاخرة ، وغير ذلك .

وهذا مرض أصله موافقة الهوى ، وعلاجه أن يعلم أن الحساب على كسب الحلال شديد عزيز ، والتبذير ممنوع منه ، وأن الله تعالى لا ينظر إلى من جر ثوبه خيلاء ، وأن كل شيء يؤجر المؤمن عليه إلا البناء .

فالعاقل من نظر فى مقدار إقامته ، وتلمح بيت نقلته ، فحينئذ يقنع من الثياب بما يواريه ، ومن البنيان ما يؤويه .

وفى الحديث : أن نوحاً عليه السلام لبث فى بيت شعر الف سنة إلا خمسين عاماً .

وأن رسول الله ﷺ ما وضع لبنة على لبنة .

وكان فى ثوب عمر اثنا عشر رقعة .

فهؤلاء فهموا أن الدنيا مفازة ، والمفازة لا تتوطن ؛ فمن فاته العلم بهذا مرض مرض الشره ، وعلاجه النظر فى العلم والتأمل بسير العلماء العقلاء .

(٦) فى رفض رئاسة الدنيا

اعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على جنسها ، فتؤثر الإمارة والولاية لمكانة الأمر والنهى ، وهذا وإن كان مطلوباً إلا أن فيه مخاطرات : أقلها العزل بعد الولاية ، وأعظمها الجور فى الحكومة ، وأوسطها تضييع الزمان إذا لم تصح للوالى نية .

وينبغى لمن أحب الولاية أن يعلم أنه إنما يتخايلها عظيمة ما لم ينلها ، فإذا نالها هانت عنده ، وسما إلى غيرها ، فاللذة تزول ، والأوزار تبقى ، والمخاطرة بالنفس والدين ؛ فالتفكر فى هذه الأشياء علاج .

بسنده إلى أبى أمامة ، عن النبى ﷺ ، قال : « **ما من رجل يلى أمر عشرة ، فما فوق ذلك إلا أتى الله عز وجل يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه ، فكه بره ، أو أوبقه[1] إثمه . أولها ملامة ، وأوسطها ندامة ، وآخرها خزى يوم القيامة** »[2] .

بسنده إلى أبى هريرة مرفوعاً : « ويل للأمراء ، ويل

---

(١) أى أدى إلى الهلاك

(٢) الدارمى فى السنن : كتاب السير ، باب ٧١ . وأحمد فى مسنده : جـ٢ ص ٤٣١ ، جـ٥ ص ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٢٣ .

للعرفاء[1] ، ويل للأمناء . ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا على شيء »[2] .

وفي افراد مسلم من حديث أبي ذر ، قال : **قلت : يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال : فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : « يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها »** . وفي لفظ آخر : **« يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم »**[3] .

(٧) دفع البخل

اعلم أن مجرد الإمساك للمال لا يسمى بخلاً ، لأن الإنسان قد يمسك فاضل المال لحاجته ، ولحوادث دهره ، ولأجل عياله وأقاربه . وهذا كله من باب الحزم ، فلا يذم وقد يجد قوم قوة في النفس بحفظ المال .

وإنما يقع اسم البخل على مانع الحق الواجب ، قال ابن عمر : من أدى الزكاة فليس ببخيل .

ثم يقال لمن منع مالا يضره ولا يكاد يؤثر فيه مما ينتفع به

---

(١) العرفاء : هم الذين يقومون بأمر الجماعة أو القبيلة بهدف معرفة شؤونهم وأحوالهم ثم يطلع الأمير عليها .

(٢) أحمد في مسنده : جـ ٢ ، ص ٣٥٢ .

(٣) أبو داود : وصايا ٤ ، والنسائي : وصايا ١٠ ، ومسلم : إمارة ١٦ ، ١٧ .

الناس : بخيل ، وقد قال النبى ﷺ : « وأى داء أدوأ من البخل »[1] .

قال أبو محمد الرامهرمزى : إنما يشبه البخل بالداء ؛ لأنه يفسد الخلق ، ويدفع عن السؤدد[2] ، ويكسب سوء الثناء والمذمة ، كما أن الداء يضعف الجسم ، ويبطل الشهوة ، ويغير اللون .

وقد قالت الحكماء ، الكريم حر ؛ لأنه يملك ماله ، والبخيل لا يستحق اسم الحرية ؛ لأن ماله يملكه .

وبسنده عن عبدالله بن عمرو ، عن النبى ﷺ أنه قال : **« إياكم والشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »**[3] .

وقال عليه السلام : **« خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل ، وسوء الخلق »**[4] .

قال الخطابى : الشح أبلغ من البخل ، فهو بمنزلة الجنس ، والبخل بمنزلة النوع .

---

(١) البخارى فى الغمس ١٥ ، والمغازى ٧٣ . وأحمد ٣/٣٠٨ .
(٢) أى عن السيادة والمجد .
(٣) مسلم فى البر ٥٦ ، وأحمد ٢/١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، ٣/٣٢٣ .
(٤) الترمذى فى البر ٤١ .

وقال بعضهم : البخل أن يضن بماله ، والشح أن يبخل بماله ومعروفه .

وقال بشر الحافى : لقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين .

وعلاج البخل أن يتفكر فيرى أن فقراء بنى آدم إخوانه ، وقد أوثر عليهم وأحوجوا إليه ، فليجعل شكر المنعم مواساة الإخوان ، ولينظر فى شرف الكرم ، وليعلم أنه يسترق الأحرار أذا أسدى إليهم معروفا ، وينهب عرضه الأشرار إذا بخل ، وليتيقن أنه سيترك ما فى يديه ذميما فليخرج منه قبل أن يخرج عنه .

(٨) النهى عن التبذير

التبذير مما يأمر به الهوى ، وينهى عنه العقل ، وأحسن الأدب فى هذا الباب تأديب الحق سبحانه وتعالى حين قال : ﴿ **ولا تُبذِّرْ تبذيراً** ﴾[١] الآية .

واعلم أن الإنسان قد يعطى رزق شهر فى يوم ، فإذا بذر فيه بقى شهراً يعانى البلاء ، وإذا دبر فيه عاش شهراً طيب العيش .

وعلاج مرض التبذير النظر فى العواقب ، والحذر مما يجوز كونه من الحاجة إلى الناس والفقر ؛ فذلك يكف كف التبذير .

---

(١) الإسراء : ٢٦ .

(٩) بيان مقدار الاكتساب والانفاق

فينبغى للعاقل أن يكتسب أكثر مما يحتاج إليه ، ويقتنى ما يعلم أنه لو حدث به حادثة كان فى المقتنى عوض عما ذهب ، ولو عرض له مانع من الاكتساب قام المفتنى بحاجته بقية عمره ، ولو جاءه أولاد واحتاج إلى فصل زوجة وخادم واحتاج ولده إلى مثل ذلك كان فى كسبه ما يكفيه .

وفى الجملة ينبغى أن تكون النفقة أقل من الكسب ليقتنى من الفضل ما يكون معداً لحادثة لا تؤمن .

وهذا ما يأمر به العقل الناظر فى العواقب ، ولا يبالى به الهوى الناظر إلى الحالة الحاضرة .

وساق بسنده إلى أبى الدرداء مرفوعاً : « **من فقه الرجل بعد النظر فى معيشته** »[1] ، وقد روى موقوفاً .

(١٠) ذم الكذب

هذا من العوارض التى يدعو إليها الهوى ، وذلك أن الإنسان لمحبته الرئاسة يؤثر أن يكون مخبراً معلماً لعلمه بفضل المخبر على المخبر .

وعلاج هذا المرض أن يعلم عقوبة الله للكاذب ، وأن يتيقن أنه مع استدامة الكذب لابد أن يطلع على حاله فينقص نقصاً لا يتلافى ،

(١) أحمد فى المسند ١٩٤/٥ بلفظ : « من فقه الرجل رفقه فى معيشته » .

فيربو حياؤه وخجله واحتقار الناس له وتكذيبهم إياه فى الصدق ، وقلة ثقتهم به على ما اكتذبه .

بسنده عن عبدالله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً** »[1] وقال ابن مسعود : « كل الخلال[2] يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب » .

(١١) دفـع الحسـد

الحسد تمنى زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها . وسبب ذلك حب الميزة على الجنس ، وكراهة المساواة ، فإذا حصلت للغير نعمة تميز بها تألم هذا الإنسان لتلك الميزة أو بمساواته له فيها ، فلا يزيل ذلك الألم إلا زوال تلك النعمة عن المحسود .

وهذا أمر لا يكاد أحد ينفك منه فى باطنه ، ولا يأثم الإنسان بوجود ذلك ، بل يأثم بالتمنى لزوال النعمة عن أخيه المسلم .

واعلم أن الحسد يوجب طول السهر ، وقلة الغذاء ، ورداءة اللون ، وفساد المزاج ، ودوام الكمد[3] .

قبل لأعرابى عاش مائة وعشرين سنة : ما أطول عمرك ؟ .

---

(١) البخارى : أدب ٦٩ . ومسلم : بر ١٠٢ – ١٠٥ . وأبو داود : أدب ٨٠ . والترمذى : بر ٤٦ . وابن ماجه : مقدمة ٧ . والدارمى : رقاق ٧ . وأحمد ١ : ٣٨٤ ، ٤١٠ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ .

(٢) أى الصفات .

(٣) الكمد : هو الحزن الشديد .

فقال : تركت الحسد ، فبقيت .

واعلم أنه لا يقع الحسد إلا فى أمور الدنيا ، فإنك لا ترى أحداً يحسد قوام الليل ، ولا صوام النهار ، ولا العلماء على العلم ، بل على الصيت والذكر .

وعلاج هذا المرض:أن يعلم الإنسان أولاً أن الأقدار السابقة لابد أن تجرى ، وأن الاحتيال فى صرف المقدور غير ممكن ، وأن القسام حكيم ، ثم هو مالك يعطى ويحرم ، فهو الذى خلق الطرف[1] السابق والكودن[2] ، وكأن الحاسد مضاد لإرادة المعطى سبحانه .

وقال بعض الحكماء :

ألا قل لمن كان لى حاسداً   أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى فعلــه   لأنك لم ترض لى ما وهـب
فجازاك عنى بأن زادنــى   وسد عليك وجوه الطلـب

ثم أن المحسود لم ينقص الحاسد من رزقه ، ولم يأخذ شيئاً من يده ، فقصد الحاسد زوال ما أعطيه ظلم محض .

ثم ينبغى للحاسد أن ينظر فى حال المحسود ، فإن كان إنما نال الدنيا فقط ، فهذا ينبغى أن يرحم لا أن يحسد ؛ لأن الذى ناله فى الغالب عليه لا له ، وهل فضول الدنيا إلا هموم كما قال المتنبى[3] :

(١) الطرْف : هو الكريم من الناس والخيل ونحوها .
(٢) الكودن : هو الفرس الهجين ، والبغل والبرذون الهجين .
(٣) أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكوفى الكندى ، أبو الطيب المتنبى (٣٠٣-٣٥٤ هـ = ٩١٥- ٩٦٥ م) : الشاعر الحكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربى . له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعانى المبتكرة . ابن خلكان ١ : ٣٦ ، والأعلام ١ : ١١٥ .

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ماقاته وفضول العيش أشغال

وبيان هذا أن الكثير المال شديد الخوف عليه ، والكثير الجوارى شديد الحذر عليهن ، قوى الاهتمام بهن أو لهن ، والوالى خائف من العزل .

ثم ليعلم أن النعم كثيرة الأكدار ، ثم هى قليلة اللبث ، والمصائب تردفها ؛ فإن صاحب النعمة ينتظر زوالها أو زواله عنها .

ثم ليوقن أن ما يحسد عليه المحسود ليس هو عند المحسود كما هو عند الحاسد ، فإن الناس يظنون فى أرباب المناصب أنهم فى غاية اللذة ، ولا يدرون أن الإنسان يسمو إلى أمر ، فإذا ناله برد عنده ، وصار عادة له ، فهو يسمو إلى ما هو أعلى منه ، وهذا الحاسد يرى الأمر بعين الجدة والغبطة .

وليعلم الحاسد أنه لو عاقبه المحسود لما ناله بأشد من الأذى الذى هو فيه ، فإن لم ينتفع بشىء من هذا العلاج فليسع فى التسبب إلى مثل ما نال المحسود ، فقد قال بعض السلف : لقد خشيت الهم حتى فى الحسد ، فإن الرجل إذا حسد جاره على الغنى سافر وتاجر ليصير مثله أو على العلم سهر وتعلم فقد صار الناس يحبون البطالة ، ثم يذمون الواصل إلى المعالى ، وما أحسن ما قال الرضى :

ذنبى إلى البهم الكوادن أننى
الطرف المطهم[1] والأغر[2] الأقرح[3]

---

(١) المطهم : هو المتناهى الحسن، أو الكريم الحسب ، أو التام من كل شىء .
(٢) الأغر : المراد المشهور .
(٣) الأقرح : الذى فى جبهته قرحة ، وهى بياض بقدر الدرهم فما دونه .

يولوننى خزر[1] العيون لأننى
غلست[2] فى طلب العلى وتصبحوا
وجذبت بالطِوَل[3] الذى لم يجذبوا
ومتحت[4] بالغرب الذى لم يمتحوا
لو لم تكن لى فى العيون مهابة
لم يطعن الأعداء فىَّ ويقدحوا

فإن لم ينل ما نال المحسود ، فلتكن مجاهدته إمساك لسانه عن ثلبه[6] وحبس ما فى قلبه .

فصل : الأحاديث التى تذم الحسد

وقد جاءت الأحاديث بذم الحسد ، بسنده إلى الزبير ابن العوام ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة ، حالقة الدين لا حالقة الشعر ، والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ، افلا أنبئكم بشىء إذا فعلتموه تحاببتم ، افشوا السلام بينكم** »[7] .

---

(١) الخزر : هو النظر بمؤخر العين وتصغيرها دهاء .
(٢) غلس : سار بغلس ، والغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .
(٣) الطول : الحبل الذى تشد به قائمة الدابة .
(٤) متحَ : استقى .
(٥) الغرب : الدلو الكبيرة .
(٦) أى عن ذكر عيوبه ومثالبه .
(٧) الترمذى : قيامة ٥٦ ، وأبو داود : أدب ٥٠ . ومالك : حسن الخلق ٧ . وأحمد ١ : ١٦٥ ، ١٦٧ ؛ ٦ : ٤٤٥ .

وبسنده قال عمر بن ميمون : رأى موسى ﷺ رجلاً عند العرش ، فغبطه بمكانه ، فسأل عنه ، فقال : نخبرك بعمله ، لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يمشى بالنميمة ، ولا يعق والديه .

وبسنده إلى سالم ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه فى الحق آناء الليل والنهار** » اخرجاه فى الصحيحين[1] .

(١٢) دفع الحقد

الحقد بقاء أثر القبيح من المحقود فى نفس ، ولعمرى أن العقل يقضى ببقاء أثر القبيح كما يقضى ببقاء أثر الجميل .

وبسنده إلى عبدالله بن كعب بن مالك ، قال : سمعت كعب بن مالك يحدث فى حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فذكر القصة ، ونزول توبته ، قال : فدخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول ، حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب : لا ينساها لطلحة . أخرجاه فى الصحيحين[2] .

(١) البخارى : علم ١٥ ، وزكاة ٥ ، وأحكام ٣ ، وتمنى ٥ ، واعتصام ١٣ ، وتوحيد ٤٥ . وأحمد ٢ : ٩ ، ٣٦ . ومسلم : مساقاة ٢٩ . والنسائى : زكاة ٢٠ .

(٢) البخارى : تفسير سورة ٩ . ومسلم : توبة ٥٥ . وأبو داود : طلاق ٢٧ ، وإمارة ٢٢ . والنسائى : طلاق ١٨ . وأحمد ١ : ٢٣٨ .

فإذا ثبت أن الجميل لا ينسى ، فالقبيح كذلك ، إلا أنه يستحب الاجتهاد فى إزالة أثر القبيح من القلب .

وعلاج ذلك أن يكون بالعفو والصفح . وللعفو محلان :

أحدهما : رؤية الثواب للعافى .

والثانى : شكر من جعل هذا فى مرتبة من يعفو ، وذلك فى منزلة من يهفو .

ومن كمال العفو حصول الرضا ، وذلك بمحو ما فى القلب .

وههنا علاج أدق من هذا ، وهو أن يرى الإنسان أن الذى سلط عليه لأذاه إنما هو بذنب منه ، أو لتكفير خطأ ، أو لرفع درجة ، أو لاختباره فى صبره .

وثم علاج أدق من هذا ، وهو أن يرى الأشياء من القدر .

(١٣) دفع الغضب

لقد بينا أن الغضب إنما ركب فى طبع الآدمى ليحثه على دفع الأذى عنه ، والانتقام من المؤذى له ، وإنما المذموم إفراطه ؛ فإنه حينئذ يزيل التماسك ، ويخرج عن الاعتدال ، فيحمل على تجاوز الصواب ، وربما كانت مكانته فى الغضبان أكثر من مكانته فى المغضوب عليه . والغضب حرارة تنتشر عند وجود ما يغضب ، فيغلى عندها دم اللذات طلباً للانتقام ، وربما أثر الحمى وسببه فى الغالب الكبر ؛ فإن الإنسان لا يغضب على من هو أعلى منه .

وعلاجه أولاً أن يتثبت الغضبان ، ويغير حاله ؛ فإن كان ناطقاً سكت ، وإن كان قائماً قعد ، وإن كان قاعداً اضطجع ليسكن تلك

الفورة ، وإن خرج فى الحال عن المكان وبعد عن المغضوب عليه كان أصلح ، ثم يتفكر فى فضل كظم الغيظ ، فقد مدح الله سبحانه القوم ، فقال : ﴿ **والكَاظِمينَ الغيظَ والعَافين عَن النَّاسِ** ﴾[1] . فإن رأى ما سلط عليه بذنبه أو شاهد قدرة المسلط على ما ذكرنا فى الحقد هان الأمر .

فصل : الأحاديث التى جاءت فى دفع الغضب

وقد جاء فى هذا أحاديث ، فذكر بسنده إلى أبى هريرة ، قال : أتى النبى ﷺ رجل ، فقال : أوصنى ، قال : « **لا تغضب** » فردد مراراً ، قال : « **لا تغضب** » . رواه البخارى[2] .

وقال رسول الله ﷺ وسلم : « **ليس الشديد بالصُّرَعَةِ ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب** »[3] . أخرجاه .

وأخرجا من حديث سلمان بن صرد ، قال : كنت جالساً مع النبى ﷺ ، ورجلان يستبان ، وأحدهما قد احمر وجهه ، وانتفخت أوداجه ، فقال النبى ﷺ : « **إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد** » ، فقالوا له : إن النبى ﷺ قال : **نعوذ بالله**

---

(١) آل عمران : ١٣٤ .

(٢) البخارى : أدب ٧٦ . والترمذى : بر ٧٣ . ومالك : حسن الخلق ١١ . وأحمد ٢ : ١٧٥ ، ٣٦٢ ، ٤٦٦ ؛ ٣ : ٤٨٤ ؛ ٥ : ٣٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

(٣) البخارى : أدب ٧٦ ، ١٠٢ . ومسلم : بر ١٠٧ ، ١٠٨ . وأبو داود : أدب ٣ . ومالك : حسن الخلق ١٢ . وأحمد ١ : ٣٨٢ ، ٢ : ٢٣٦ ، ٢٦٨ ، ٥١٧ .

من الشيطان الرجيم، فقال أَوَ بِي جنون[1].

وروى أبو داود فى سننه من حديث أبى ذر، عن النبى ﷺ أنه قال : « **إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع** »[2] .

قال الخطابى : القائم متهيء للحركة والبطش ، والقاعد دونه فى هذا المعنى .

وفى حديث ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « **إذا غضب أحدكم فليسكت** »[3] .

وقال الأحنف ما اعترض التثبت فى الغضب إلا وهى شيطان العجلة[4] .

فصل : عواقب الغضب

ومتى لم يسكن الغضبان عند شدة فورته لم يؤمن أن تبدر منه نكاية[5] يندم عليها إما فى نفسه أو فى المغضوب عليه ، فكم ممن غضب فقتل وجرح أو كسر عضو ولده ، ثم بقى الدهر نادماً على ما فعل .

ومنهم من ينكأ فى نفسه فإن رجلاً غضب مرة ، فصاح ،

---

(١) البخارى : بدء الخلق ١١ ، أدب ٤٤ ، ٧٦ . ومسلم : بر ١٠٩ .
(٢) أحمد : جـ٥ ص ١٥٢ .
(٣) أحمد : جـ١ ص ٢٣٩ .
(٤) أى : ضعف شيطان العجلة .
(٥) نكاية : جرح أو قتل .

فنفث[1] الدم فى الحال ، وأدى به الأمر إلى الهلاك فمات .

ولكم[2] رجل رجلاً ، فانكسرت أصابع اللاكم ولم يستضر الملكوم .

ومن العلاج أن يتصور الغضبان حاله عند الغضب ، ثم يتصور حاله عند السكون ، حينئذ يعلم أن حالة الغضب حالة جنون ، وخروج عن مقتضى العقل ، ومتى لم ينثن عزم الغضبان عن ضرب المغضوب عليه ، فاستقر وغير ذلك ووعد نفسه بالفعل بشرط التثبت ، فإنه إذا حصل التثبت رأى قبح ما عزم عليه فترك .

فصل : كيف كان غضب السلف الصالح ؟

وقد كان السلف إذا غضبوا غفروا وصفحوا طلباً لفضيلة العفو وكظم الغيظ .

ومنهم من يرى السبب فى إغضابه ذنوب نفسه .

ومنهم من يرى أنه مختبر ، إلى غير ذلك مما ذكرناه فى باب الحقد . وفى بعض كتب الله تعالى «**ياابن آدم اذكرنى إذا غضبت أذكرك إذا غضبت ، فلا أمحقك مع من أمحق ، وإذا ظلمت فارض بنصرتى ؛ فإن نصرتى خير لك من نصرتك لنفسك** » .

وقال مورق : ما تكلمت بكلمة فى الغضب فندمت عليها فى الرضا .

---

(١) نفث : أى خرج ورمى به من فمه .
(٢) لكم : أى ضربه فى وجهه .

وكان ابن عون لا يغضب ، فإذا أغضبه الرجل ، قال : بارك الله فيك .

فصل : عدم المعاقبة فى حالة الغضب

ولا ينبغى للغضبان على الشخص أن يعاقبه فى حالة غضبه ، وإن كان مستحقاً للعقوبة ، بل يمهل حتى يسكن الغضب ، لتكون العقوبة بمقدار الإساءة لا بمقدار الغضب . أتى عمر بن عبدالعزيز برجل كان واجداً[1] عليه ، فقال : لولا أنى غضبان لضربتك ، ثم خلى سبيله .

(١٤) دفــع الكــبر

الكبر تعظيم شأن النفس ، واحتقار الغير ، وذلك يكون بسبب الترفع على من هو دونه ، إما فى النسب أو المال أو العلم أو العبادة أو غير ذلك .

وعلامة الكبر الأنفة ممن يتكبر عليه ، والاختيال ، والفخر ، ومحبة تعظيم الناس له .

وعلاج ذلك نوعان : جملى ، وتفصيلى . فأما الجملى ، فنوعان : علمى ، وعملى : فالعلمى فى الأدلة السمعية والعقلية على رذائل الكبر ، وأما العملى فصحبة المتواضعين وسماع أخبارهم .

---

(١) أى كان غضباناً عليه .

وأما التفصيلي فأن ينظر إلى رذائل النفس وأن يعلم أن ما يتكبر به إن كان مالاً ، فهو مأخوذ منه عن قريب ، والفضل إنما يكون فى الغنى عن الشيء لا به ، لأن الغنى بالشيء فقير إليه ، وإن كان علماً فقد سبقه خلق كثير أعلم منه ، ثم علمه ينهاه عن حالته ، فهو حجة عليه . كذلك إن كان عملاً ثم رؤيته للعمل بعين التمام نقيصة .

فصل

ذكر بسنده إلى أبى سلمة ، قال : التقى عبدالله بن عمرو وابن عمر على المروة فنزلا فتحدثا ، ثم مضى عبدالله بن عمرو وقعد ابن عمر يبكى ، فقيل له : ما يبكيك فقال هذا (يعنى عبدالله ابن عمرو) زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله تعالى فى النار على وجهه** »[1] . وبسنده إلى إياس بن سلمة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب من الجبارين حتى يصيبه ما أصابهم** »[2] .

وفى أفراد مسلم من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال : الرجل ، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ؟ قال :**

---

(١) مسلم : إيمان ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ . وأبو داود لباس ٢٦ . والترمذى بر ٦١ . وابن ماجه مقدمة ٩ ، وزهد ١٦ . بلفظ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » . وأخرجه الطبرانى فى الكبير باللفظ المذكور فى المتن كما قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١ : ٩٨ .

(٢) الترمذى : برّ ٦١ .

إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » [1]

وفى افراده من حديث الأغر عن أبى هريرة وأبى سعيد ، قالا : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله عز وجل : العز إزارى ، والكبر ردائى ، فمن نازعنى فيهما عذبته** »[2] .

قال الخطابى : ومعنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله اختص بهما ، لا يشركه فيهما أحد ، ولا ينبغى لمخلوق أن يتعاطاهما : لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل وضرب الرداء والإزار ، مثلاً يقول (والله أعلم) : كما لا يشرك الإنسان فى إزاره وردائه ، فكذلك لا يشركنى فى الكبرياء والعظمة مخلوق .

قال : وقوله « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر** »[3] يتأول على وجهين : أحدهما : أنه كبر الكفر ، والثانى : أنه ينزع الكبر من قلوب أهله قبل دخولهم الجنة . وقوله : « **وغمط الناس** » أنه ازرى بهم واستخف بهم ، ويقال : غمط وغمص .

وبسنده إلى الحسن قال : تراهم يهدرون عند هدير الفحل أنت والله انت وتراه مقنعاً ساكتاً يحسب حميق أنه مثل ما يقال له . قال : وترى أحدهم يتخزل فى مشيته يسحب عظامه عظماً عظماً لا يمشى طبيعة .

---

(١) مسلم : إيمان ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ . وأبو داود : لباس ٢٦ . والترمذى : بر ٦١ . وابن ماجه : مقدمة ٩ ، وزهد ١٦ . وأحمد : ١ : ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١ ؛ ٢ : ١٦٤ ، ٢١٥ .

(٢) أبو داود : لباس ٢٥ . ومسلم : بر ١٣٦ . وابن ماجه : زهد ١٦ . وأحمد ٢ : ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ . و ٦ : ١٩ .

(٣) سبق تخريجه .

(١٥) دفع العجب

العجب إنما ينشأ من حب النفس ، والمحبوب لا ترى زلته ، ولا يعتقد نقصه ، بل يرى بعين الكمال . ومن بلايا العجب أنه يؤدى إلى بغض الأمر الذى به وقع العجب ؛ لأن المعجب بنفسه فى أمر لا يتزيد منه ثم يترقى إلى أن يعيب غيره فى الاعتقاد والنقص فى سواه .

وعلاج العجب البحث عن عيوب النفس على ما بينا آنفاً ، وسؤال الغير عن قبائحها ومعايبها ، والنظر فى أحوال من سبقه إلى ما أعجب به وبرز عليه ، فإن عجب العالم بعلمه فلينظر فى سير العلماء ، أو بزهده فلينظر فى سير الزهاد ، فحينئذ لا يعد نفسه فقد كان الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث ، وكان كهمس بن الحسن يختم كل يوم وليلة ثلاث مرات ، وصلى سلمان التيمى الفجر بوضوء العتمة أربعين سنة .

ومن تأمل سير القوم رأى نفسه فيما حصل بالإضافة إليهم كمن معه دينار يعجب به ولا يدرى أن فى الدنيا من يملك ألوفاً كثيرة . وبسنده قال إبراهيم الخواص : العجب يمنع من معرفة قدر النفس .

وقال بعض الحكماء : عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وما أضر العجب بالمجلس .

(١٦) دفـع الريـاء

من عرف الله تعالى حق معرفته أخلص له عمله ، وإنما يقع الرياء من قلة المعرفة له ، وتعظيم قدر الخلق، وإيثار النفس مدحهم وحمدهم ، والناس فى هذا المرض متفاوتون ، فمنهم من لا يقصد بعمله إلا مدح الخلق له ، ومنهم من يريد الله بعمله ويريد مدح المخلوقين ، ومنهم من لا يقصد الخلق أصلاً ، فإذا اطلعوا عليه حسن العمل وجوده ليمدح فهذه آفة دخلت على عمل صحيح .

وعلاج هذا المرض فى الجملة تحقيق معرفة الله سبحانه ، فمن عرفه أفرد القصد له ، ولم ير غيره ، وأقام نفسه فى مقام العابد الذليل للمعبود لا فى مقام معبود ممدوح ، ورأى أن حصول الأجر إنما يكون بخالص العمل فاحترس من تعب ضائع .

والعقوبة على الرياء شديدة ، بسنده حديث عمر ابن الخطاب : « **إنما الأعمال بالنية ، وإنما لكل امرىء ما نوى** »[١] .

وبسنده إلى أبى موسى ، قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت أن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) البخارى : بدء الوحى ١ ، إيمان ٤١ ، إكراه [فى الترجمة] ، نكاح ٥ ، طلاق ١١ ، مناقب الأنصار ٤٥ ، عتق ٦ . مسلم : إمارة ١٥٥ . وأبو داود : طلاق ١١ . والترمذى : فضائل الجهاد ١٦ ، طهارة ٥٩ ، طلاق ٢٤ ، إيمان ١٩ . ابن ماجه : زهد ٢٦ . وأحمد ١ : ٢٥ .

« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » متفق عليه[1] .

وبسنده إلى أبى هريرة ، قال له ناتل الشامى : أيها الشيخ حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟**

قال : قاتلت فيك حتى قتلت : قال : كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال : هو جرىء . فقد قيل .

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟

قال : تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت القرآن .

فقال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : هو عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل .

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟

فقال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

---

(١) البخارى : علم ٤٥ ، جهاد ١٥ ، خمس ١٠ ، توحيد ٢٨ . مسلم : إمارة ١٤٩ – ١٥١ . أبو داود : جهاد ٢٤ . النسائى : جهاد ٢١ . وابن ماجه : جهاد ١٣ . وحنبل ٤ : ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤١٧ .

قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » انفرد باخراجه مسلم[1] .

وبسنده إلى أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربه عز وجل : **« قال أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا برىء منه وهو الذى أشرك »** أخرجه مسلم[2] .

وبسنده إلى محمود بن لبيد : أن رسول الله ﷺ قال : **« إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله تعالى لهم يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً »**[3] .

وبسنده إلى أبي حازم ، قال : لا يحسن عبد فيما بينه وبين العباد ولا يعور[4] فيما بينه وبين الله إلا عور الله ما بينه وبين العباد ، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها ؛ إنك إن صانعت هذا الوجه مالت إليك الوجوه كلها ، وإذا أفسدت شنعتك الوجوه كلها .

---

(١) مسلم : كتاب الإمارة ، برقم ١٥٢ .

(٢) أحمد : ٢ : ٣٠١ ، ٤٣٥ . بنفس اللفظ ، وأخرجه مسلم : زهد ٤٦ . وابن ماجه : زهد ٢١ . وأحمد ٣ : ٤٦٦ ، ٤ : ٢١٥ . بلفظ : « .. أنا أغنى الشركاء عن الشرك .. » .

(٣) الترمذى : حدود ٢٤ ، فتن ٥٩ ، زهد ٢١ . وابن ماجه : حدود ١٢ ، زهد ٢١ . وأحمد ١ : ٢٢ ، ٤٤ ، ٣ : ٧ ، ٣٠ ، ٣٨٢ ، ٤ : ١٢٦ ، ٥ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(٤) أى يفسد .

وبسنده إلى ابن توبة أبو جعفر عبدالله ، قال : رأيت أبا بكر الأدمى القارىء فى النوم بعد موته يمد يده ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : وقفنى بين يديه وقاسيت شدائد وأموراً صعبة ، فقلت له : فتلك الليالى والمواقف والقرآن . فقال : ما كان شىء أضر على منها لأنها كانت للدنيا، فقلت : فإلى أى شىء انتهى أمرك ، قال : قال لى : تعالى آليت[1] على نفسى أن لا أعذب أبناء الثمانين .

(١٧) دفع فضــول الفكر

اعلم أن الفكر يراد لاستدراك فارط ، والنظر فى مصلحة مستقبلة ، فإذا كان فيما لا يثمرها كان ضروراً وإذا كـثر أنهك البدن ، قال أبقراط : ينبغى للعلماء أن يتركوا الفكر وقتاً ما لئلا ينهك أبدانهم .

قلت : ولا يجوز للعاقل أن يخلى نفسه من الفكر ، ولكن يكون فيما يتصور له نيله ، فأما إذا تفكر العامى فى أن يكون خليفة ، وأن ينال علم أبى حنيفة والشافعى ، ثم يجمع بينه وبين زهد بشر ومعروف الكرخى ، ويحصل مثل مال عبدالرحمن بن عوف ؛ فهذه أفكار تضنى وتردى ، خصوصاً إذا قنع بالفكر ، واستعمل الكسل عن الطلب . وإنما ينبغى أن يتفكر فيما تصل إليه قدمه ، ويطمع لمثله فيه من الخير ، ويتفكر فى جهاده للطبع فى دفع الشر ، فقد تفكر خلق كثير من العصاة فى عواقبهم فتابوا ، وكثير من الملوك فى غرور الدنيا فتزهدوا .

---

(١) أى : حلفت .

قال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه . وبسنده إلى أم الدرداء ، قيل لها : ما كان أفضل عمل أبى الدرداء ؟ قالت : التفكر والاعتبار .

ووقف مالك بن دينار ليلة فى داره على قدمه إلى الفجر ، فقال : ما زال أهل النار يعرضون على بسلاسلهم وأغلالهم إلى الصباح .

وقال بعض الحكماء : بترداد الفكر ينجاب[1] العمى .

(١٨) دفع فضول الحـزن

اعلم أن العاقل لا يخلو من الحزن ؛ لأنه يتفكر فى سالف ذنوبه فيحز على تفريطه ، وفيما قال العلماء والصالحون فيحزن لفوته .

بسنده إلى مالك بن دينار قال : إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما أن البيت إذا لم يسكن خرب .

وبسنده إلى إبراهيم بن عيسى ، قال : ما رأيت أطول حزناً من الحسن ، وما رأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة .

وبسنده إلى مالك بن دينار قال : بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك .

وإذ قد تبين أن الحزن لا يزال ملازماً قلوب المتقين فينبغى

---

(١) أى ينكشف .

أن يتقى إفراطه ؛ لأن الحزن إنما يكون على الفائت ، وقد عرفنا طريق الاستدراك .

وجاء فى الحديث : « بقية عمر المؤمن لا قيمة له يستدرك فيه ما فات » فإن كان المحزون عليه لا يمكن استدراكه لم ينفع الحزن . وإن كان ديناً فينبغى أن يقاومه برجاء الفضل والرحمة ليعتدل الحال . فأما إذا كان الحزن لأجل الدنيا وما فات منها فذلك الخسران المبين فليدفعه العاقل عن نفسه . وأقوى علاجه أن يعلم أنه لا يرد فائتاً ، وإنما يضم إلى المصيبة فتصير اثنتين ، والمصيبة ينبغى أن تخفف عن القلب ، وتدفع ، فإذا استعمل الحزن والجزع زادت ثقلاً ، قال ابن عمر : إذا استأثر الله بشىء فالهَ عنه ثم فى الخلف عن الفائت ما يسلى ، فإن عدم ما يسلى اجتهد فى صرف ذلك فى قلبه ، وليعلم أن الداعى إلى الحزن الهوى لا العقل ؛ لأن العقل لا يدعو إلى ما لا ينفع ، وليعلم أنه سيسلو بعد حين فليجتهد فى تقديم المؤخر ، وليرتح ما بين الزمانين ، ومما يمحق الحزن العلم بأنه لا يفيد والإيمان بالثواب ، ويذكر من أصابه أكثر من مصيبته .

(١٩) دفع فضول الغم والهم

الغم يكون للماضى ، والهم للمستقبل ، فمن اغتم لما مضى من ذنوبه نفعه غمه على تفريطه ؛ لأنه يثاب عليه . ومن اهتم بعمل خير نفعته همته . فأما إذا اغتم لمفقود من الدنيا ، فالمفقود لا يرجع والغم يؤذى ، فكأنه أضاف إلى الأذى أذى ، كما قلنا فى الحزن .

وينبغى للحازم أن يحترز مما يجلب الغم ، وجالبه فقد المحبوب ؛ فمن كثرت محبوباته كثر غمه ، ومن قللها قل غمه .

فإن قال قائل : إذا لم أجد محبوباً اغتممت ؛ قيل له : صدقت ، ولكن لا يبلغ غمك بالعدم معشار عشر غم من فقد المحبوب ، ألا ترى أن من ولا ولد له يغتم ، ولكن لا كغم من أصيب بولده .

ثم أن الإنسان كلما طال ألفه لما يحبه واستمتاعه به تمكن من قلبه ، فإذا فقده أحس من مر التألم فى لحظة لفقده بما يزيد على لذات دهره المتقدم . وهذا لأن المحبوب ملائم للنفس كالصحة ، فلا تجد النفس لذتها إلا عند وجودها وفقدها مناف لها ، ولذلك تألم بالفقد مالا تفرح بالموجود ؛ لأنها ترى وجود المحبوب كالحق الواجب لها ، فينبغى للعاقل تقليل الألفة ؛ فإن اضطر إلى جوالب الغم ، فأثمرت الغم ، فعلاجه فى الأول الإيمان بالقدر ، وأنه لابد مما قضى ، ثم يعلم أن الدنيا موضوعة على الكدر ، فالبناء إلى النقض ، والجمع إلى التفرق ، ومن رام بقاء مالا يبقى كان كمن رام وجود مالا يوجد فلا ينبغى أن يطلب من الدنيا مالم توضع عليه كما قال الشاعر :

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الإيذاء والأكدار

ثم يتصور مانزل به مضاعفاً فيهون عليه حينئذ ما هو فيه ، ومن عادة الحمال الحازم أن يترك فوق حمله شيئاً ثقيلاً ، ثم يمشى خطوات ثم يولى به فيخف الأمر عنه ، ثم ليرتقب زمن العافية هجوم البلاء ، فإذا هجم ما يكرهه .

وليتمثل كلما يتصور نزوله نازلاً ، فإذا نزل بعض ذلك كان ربحاً ، مثل أن يتصور أن يؤخذ ماله كله ؛ فإذا أخذ البعض عد الباقى غنيمة .

ويتصور أن يعمى ، فإذا رمد سهل الأمر ، وكذلك جميع المضرات ، قال الشاعر :

يمثل ذو اللب[1] فى نفسه مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه[2] لما كان فى نفسه مثلا
وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا
فإن بدهته صروف الزمان ببعض مصائبه أعولا[3]
ولو قدم الحزم فى أمره لعلمه الصبر حسن البلا

قال بعض السلف : رأيت امرأة فتعجبت من نضارتها ، فقلت : هذا وجه ما طرقة حزن ، فقالت : لا تقل هذا فما أعرف من ناله ما نالنى ، كان لى زوج فاشترى أضحية ، فذبحها وله ولدان ، فقال الأكبر للأصغر : تعال حتى أريك كيف ذبح أبى الشاة فذبحه ، فلما طلبناه هرب فخرج الأب فى طلبه فهلكا ، فقلت : وكيف حزنك ؟ قالت : لو وجدت فى الحزن دركا لاستعملته .

فصل : غلبة السوداء

وقد يقع الحزن والغم من غلبة السوداء ، فيعالج بما يزيل السوداء بالمفرحات . والغم يجمد الدم ، والسرور يلهب الدم ، حتى تعلو حرارته الغريزية ، وجميعاً يضران وربما قتلا إن لم يعجل تفتيرهما .

---

(١) أى ذو العقل .
(٢) أى لم تفزعه .
(٣) أى بكى بكاء شديداً .

(٢٠) دفع فضول الخوف والحذر من الموت

الخوف والحذر إنما هما للمستقبل ، والحازم من أعد للخوف عدته قبل وقوعه ، ونفى فضول الخوف مما لابد منه ، إذلا ينفعه خوفه منه .

وقد اشتد الخوف من الله تعالى بكثير من الصالحين ، حتى سألوا الله تعالى تقليل ذلك . والسبب فى سؤالهم أن الخوف كالسوط فإذا ألح بالسوط على الناقة قلقت . وإنما ندب به المتوانى بسنده إلى سفيان الثورى ، قال لشاب يجالسه : أتحب أن تخشى الله حق خشيته ؟ قال : نعم ، قال : أنت أحمق ، لو خشيته حق خشيته ما أديت الفرائض .

فصل : الحذر من الإفراط فى الخوف

ولاي ينبغى للعاقل أن يشتد خوفه من نزول المرض ، فإنه نازل لابد ، وخوف مالا بد أن يأتى زيادة أذى .

فأما الخوف من الموت والفكر فيه ، فإنه لا سبيل إلى دفعه عن النفس ، وإنمايخفف الأمر العلم أنه لابد منه ، فلا يفيد الحذر إلا زيادة على المحذور . وكلما تصورت شدته كانت كل تصويره موتاً . فليصرف الإنسان فكره عن تصور الموت ليكون ميتاً مرة لا مرات ويكون صرف الفكر ربحاً .

وليعلم أن الله تعالى قادر على تهوينه إذا شاء ، وليوقن بأن ما بعده أخوف منه ؛ لأن الموت قنطرة إلى منزل إقامة ، وإنما ينبغى للإنسان أن يكثر من ذكر الموت ليعمل له لا لنفس تصويره وتمثيله ، فإن خطر على القلب الحزن على فراق الدنيا ، فعلاج ذلك أن يعلم أنها ليست بدار لذة ، وإنما لذاتها راحة من مؤلم . ومثل هذا لا ينافس فيه ؛ فإن حزن العاقل على فراق الدنيا لفوت العمل الصالح ، فقد كان السلف يحزنون لذلك .

قال معاذ بن جبل عند موته : اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولالغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر[1]، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

فصل

ومن نزل به الموت : فليعلم أنها ساعة تحتاج إلى معاناة صعبة ؛ لأن صورتها ألم محض ، وفراقَ المحبوبات ، ثم ينضم إلى ذلك هول السكرات ، والخوف من المآل .

ويأتى الشيطان فيسخط العبد على ربه ويقول : انظر فى أى شىء ألقاك ، وما الذى قضى عليك ، وكيف يؤلمك ؟ وها أنت تفارق ولدك وأهلك وتلقى بين أطباق الثرى[2] !

فربما أسخطه عَلَى ربه ، وكره قضاء الله تعالى إليه ، وأنطقه بكلام يتضمن نوع اعتراض ، وربما حسن إليه الجور[3] فى الوصية ،

---

(١) الهواجر : مفردها هاجرة ، وهى منتصف النهار .
(٢) الثرى : أى التراب .
(٣) الجور : هو الظلم .

وأن يزوى[1] لبعض الورثة ، إلى غير ذلك من المحن . فتعين حينئذٍ الحاجة إلى معالجة إبليس ومعالجة النفس .

وقد نقل أبو داود من حديث أبى اليسر ، عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « **أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت** »[2] .

وفى تلك الساعة يقول الشيطان لأعوانه : إن فاتكم الآن لم تقدروا عليه أبداً .

فأما العلاج لتلك الشدائد، فينبغى أن نذكر قبله مقدمة ، وهو أن من حفظ الله فى صحته حفظه الله فى مرضه ، ومن راقب الله فى خطراته حرسه الله عند حركات جوارحه .

وفى حديث ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « **احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرفِ إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة** » .

ثم قد سمعت قصة يونس عليه السلام لما كانت له أعمال خير متقدمة انتاشته من شدته ، فقال تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ من المسبحين للبثَ فى بطِنِه إلى يَوْم يُبْعَثُونَ** ﴾[3] .

ولما لم يكن لفرعون عمل خير لم يجد وقت الشدة متعلقاً فقيل له : ﴿ **آلآن وقد عصيتَ قَبْلُ وكنتَ منَ المفسدين** ﴾[4] .

---

(١) أحمد ٢ : ٣٥٦ ، ٣ : ٤٢٧ . والنسائى : استعاذة ٦١ . وأبو داود : وتر ٣٢ .

(٢) أحمد ١ : ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ . والترمذى : قيامة ٥٩ .

(٣) الصافات : ١٤٣ - ١٤٤ .

(٤) يونس : ٩١ .

وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند الموت : سيدى لهذه الساعة خبأتك .

فأما من ضيع فى صحته ، فإنه يضيع فى مرضه ، كما نقل عن بعض الصحابة أنه رأى شيخاً يطلب من الناس ، فقال : هذا ضيع أمر الله فى صغره ، فضيعه الله فى كبره .

فأما نفس العلاج فينبغى أن تشجع النفس ، وتقول لها : إنما هى ساعة . ثم أرجو كمال الراحة ، كما قال عليه السلام : « **لا كرب على أبيك بعد اليوم** »[1] .

ودعى أبو بكر بن عياش عند الموت إلى الرجاء ، فقال : كيف لا أرجوه ، وقد صمت له ثمانين رمضان .

وقال المعتمر ابن سليمان : قال لى أبى : يابنى اقرأ علىّ أحاديث الرخص لعلى ألقى الله وأنا حسن الظن به .

فينبغى للمؤمن أن يرمى صوت الخوف ، ويحدو الناقة[2] كما قال حادى البادية :

بشـرها دليلهـا وقـالا غداً ترين الطلح[3] والجبال

بسنده إلى أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى** » متفق عليه[4] .

---

(١) ابن ماجه : جنائز ٦٥ .
(٢) أى يتغنى لها حتى تسرع فى السير .
(٣) الطلح : نوع من أنواع الشجر .
(٤) البخارى : توحيد ١٥ ، ٣٥ . ومسلم : توبة ١ ، وذكر ٢ ، ١٩ . والترمذى : زهد ٥١ ، والدعوات ١٣١ . وابن ماجه : أدب ٥٨ . والدارمى : رقاق ٢٢ . وأحمد ٢ : ٢٥١ ، ٣١٥ ، ٣٩١ ، ٤١٣ .

وبسنده إلى جابر ، قال سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول : « **لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن** » أخرجه مسلم[1] .

وقال الفضيل بن عياض : الخوف أفضل من الرجاء ، فإذا نزل الموت فالرجاء أفضل .

قلت : وهذا صحيح لما بينا من أن الخوف سوط يساق به المتوانى ، فإذا كلَّ[2] البعير لم يبق إلا الرفق ، فإن قيل : فما تقول فى خوف عمر بن عبدالعزيز عند الموت ؟ فالجواب : أنه لما تعلقت به حقوق الرعية خاف من مطالب طبعه مبنى على الشح كان يقول : إنما أخاف ولايتكم هذه ، على أنه قد كان يتمسك بأذيال الرجال ، فإن ابن عباس لما قال له : أبشر ياأمير المؤمنين وليت فعدلت ثم شهادة ، فقال : أتشهد لى بهذا عند الله ياابن عباس ؟

فصل : اشتداد المصيبة والأجر عليها

فإن اشتد بالمريض كرب ، فليحسب ذاك فى باب الأجر ؛ فقد كانوا يستحبون للمريض شدة النزع ليكفر ذلك عنه الذنوب .

بسنده إلى إبراهيم ، قال : كانوا يستحبون أن يجهدوا عند الموت .

وذكر بسنده عن عمر بن عبدالعزيز قال : ما أحب أن تهون على سكرات الموت أنه آخر ما يكفر به عن المرء المسلم .

---

(١) مسلم : جنة ٨١ ، ٨٢ . وأبو داود : جنائز ١٣ . وابن ماجه : زهد ١٤ . وأحمد ٣ : ٢٩٣ ، ٣١٥ .

(٢) كل : أى أرهق وتعب .

فصل : التوبة من كل ذنب عند الموت

وينبغى للمريض ما دام ثابت العقل أن يتوب ليلقى الله طاهراً من كل ذنب ، وأن يجرد وصيته ، وأن يسلم أهله وولده إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فإنه يتولى الصالحين .

فصل : إزعاج الشيطان

فإن أزعجه الشيطان بذكر البلى ، فليعلم أن البلى واقع على المركب ، والراكب قد رحل ، وليعلم أن الشريعة قد مضت بوصول المؤمن بعد الموت إلى النعيم الدائم ، فمن حقق الإيمان ، لم يحزن ؛ لأن مآل المؤمن إلى الخير . ومن لم يتحقق الإيمان ، فليحزن لفقد التحقيق .

وبسنده إلى كعب ، عن النبى ﷺ قال : « **نسمة المسلم طير تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده** »[1] .

ومقصودنا من هذا الباب أن يكون الخوف من الموت بمقدار ؛ لئلا ينهك البدن ، ويبالغ فى الأذى ، وأن يخاف لما بعد الموت فيعمل له .

(٢١) دفع فضول الفرح

إذا اشتد الفرح التهب الدم ، وذلك يضر ، وربما قتل إن لم

---

(١) النسائى : جنائز ١١٧ . وابن ماجه : زهد ٣٢ . ومالك : جنائز ٤٩ . وأحمد ٣ : ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ .

يعدل ، وينبغى للإنسان إذا رأى أسباب الفرح أن يدرج نفسه إليه ، فإن يوسف عليه السلام لما التقى بأخيه سأله : هل لك من أب ؟ ولم يزل يلاطفه لئلا يفجأه بالسبب المفرح .

والفرح ينبغى أن يكون بمقدار ليعدل الحزن ، فأما إذا أفرط ، فإنه دليل على الغفلة القوية إذ لا وجه للفرح عند العاقل ، فإنما يفرح بالطبع لما يفرح ، ثم يذكر مصيره وخوف مآله ، فينمحى ذلك الفرح ، ومتى قويت غفلة الفرح حملت إلى الأشر والبطر . ومن هذا قوله تعالى : ﴿ **لا يحبُّ الفرحين** ﴾[1] ، يعنى الأشرين الذين خرجوا بالفرح إلى البطر .

وعلاج شدة الفرح بالفكر فيما قد سلف من الذنوب وفيما بين يدى العبد من الشدائد . وقد قال الحسن البصرى : فضح الموت الدنيا ؛ فلم يترك لذى لب بها فرحاً .

(٢٢) دفـع الكسـل

الموجب للكسل حب الراحة ، وإيثار البطالة ، وصعوبة المشاق . وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك : أن النبى ﷺ كان يكثر أن يقول : « **اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل** »[2] .

وفى أفراد مسلم من أفراد أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « **المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل**

(١) القصص : ٧٦ .
(٢) البخارى : جهاد ٧٤ ، وأطعمة ٢٨ . وأبو داود : وتر ٣٢ . والترمذى : دعوات ٧٠ . وأحمد ٣ : ١٥٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ .

خيرٌ احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ؛ فإن أصابك شيء فلا تقل : لو انى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن (لو) يفتح عمل الشيطان »[1] .

وقال ابن مسعود : إنى لأبغض الرجل أراه فارغاً ليس فى شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة .

وقال : يكون فى آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم ، يسمون الاتيان .

وقال ابن عباس : تزوج التوانى بالكسل ، فولد بينهما الفقر .

وقال مالك بن دينار : ما من أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة ، فإن صبر صاحبها أفضت به إلى روح ، وإن جزع رجع .

قال سفيان الثورى : مضى القوم على الخيل العتاق[2] وبقينا على حمر دبرة[3] .

فصل : علاج الكسل

وعلاج الكسل تحريك الهمة بخوف فوات القصد ، وبالوقوع فى عقاب اللوم ، أو بالحصول فى بيد التاسف ؛ فان أسف المفرط إذا عاين أجر المجتهد أعظم من كل عقاب .

---

(١) مسلم : قدر ٣٤ . وابن ماجه : مقدمة ١٠ . وأحمد ٢ : ٣٦٦ ، ٣٧٠ .
(٢) الخيل العتاق : أى الخيل الكرام .
(٣) حمر دبرة : أى أصابها جرح فى ظهورها .

وليفكر العاقل فى سوء مغبة الكسل ، فرب راحة أوجبت حسرات وندماً .

ومن رأى جاره قد سافر ، ثم عاد بالأرباح ، زادت حسرة أسفه على لذة كسله أضعافاً . وكذلك إذا برع أحد الرفيقين فى العلم ، وتكاسل الآخر .

والمقصود أن ألم الفوات يربو على لذة الكسل .

وقد أجمع الحكماء على أن الحكمة لا تدرك بالراحة ، فمن تلمح ثمرة الكسل اجتنبه ، ومن مد فطنته إلى ثمرات الجد نسى مشاق الطريق .

ثم إن اللبيب يعلم أنه لم يخلق عبثاً ، وإنما هو فى الدنيا كالأجير أو كالتاجر .

ثم إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء فى القبر كلحظة ، ثم إضافة ذلك إلى البقاء السرمدى إما فى الجنة وإما فى النار ليس بشىء .

ومن أنفع العلاج النظر فى سير المجتهدين ، فالعجب من مؤثر البطالة فى موسم الأرباح ، وتارك الاستلاب وقت النثار .

بسنده إلى فرقد ، قال : إنكم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل ، ألم تروا إلى الفاعل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه ، فإذا فرغ اغتسل ولبس ثوبين نقيين ، وأنتم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل .



(٢٣) تعريف الرجل عيوب نفسه

اعلم أن النفس محبوبة ، وعيوب المحبوب قد تخفى على المحب ، وفى الناس من يقوى نظره وجهاده للنفس ، فينزلها منزلة العدو فى المخالفة ، فيظهر له عيوبها .

قال : إياس بن معاوية : من لم يعرف عيب نفسه فهو أحمق ، فقيل له فما عيبك ؟ قال : كثرة الكلام . وهذا أمر نادر ، والعمل على الغالب ، فإن الغالب أن يخفى الإنسان عيوب نفسه ، ولسنا نريد أنه لا يعرف عيباً ، فإن العاقل إذا أتى عيباً عرفه ، وإنما غرضنا العيوب الباطنة ، فإنها كالأمراض الباطنة التى لا يعلم بها الطبيب ، فيصف لها دواءً ولا عليها إمارة ، ومحبة الإنسان لنفسه تمنعه أن يرى العيب الخفى عيباً كما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

وقد روى أن رجلاً صحب رجلاً ، فلما أراد أن يفارقه ، قال له : أخبرنى عن عيوبى ، فقال : سل غيرى ، فإنى كنت أراك بعين الرضا .

فإن قيل : فإذا كانت العيوب باطنة والإنسان لا يراها عيوباً ، فكيف الطريق إلى تعرفها؟ فالجواب أن لذلك سبع طرق :

الطريق الأول: أن يتخير صديقاً من أعقل مخالطيه ، ويسأله ابانة ما يرى من قبيحه ، ويعرفه أن ذلك منة منه عليه، فإذا أخبره ابتهج بما سمع منه ، ولم يظهر له الحزن على ذلك ؛ لئلا يقصر فى شرح

الأمور ، ويقول له : متى كتمتنى شيئاً عددتك غاشاً .

والطريق الثانى أن يبحث عما يقوله فيه جيرانه واخوانه ومعاملوه ، وبماذا يمدحونه أو يذمونه .

والطريق الثالث : أن يتطلع إلى ما يقول فيه الأعداء ، فإن العدو بحاث عن العيوب . ومن هذا الوجه ينتفع الإنسان بعدوه مالا ينتفع بصديقه ؛ لأن العدو يذكر النقص ، والصديق يستر الخلل ؛ فإذا عرف الإنسان من طريق عدوه نقصه اجتنبه .

والطريق الرابع : أن يصور أفعاله فى غيره ، ثم يستعمل منها ما يستحسن ، ويترك ما يستقبح .

والطريق الخامس : أن يعمل فكره فى عواقب خلاله وثمراتها ، فيرى عيب العيب ، وحسن الحسن ، فإن الفكر الصادق نافذ .

والسادس : أن يعرض أعماله على محك الشرع ، ويريها نافذ العقل ، ويضعها فى موازين العدل ، فإنه يرى الأرجح والأدون .

والسابع : أن ينظر فى سير العاملين ، ثم يقيس أفعاله بأفعالهم ، فيرى حينئذ أن آثار النقص عيب فيجتنبه ، فضلاً عن فعل القبيح .

(٢٤) تنبيه الهمة الدنية

إذا كانت الهمة الدنية طبعاً لم ينجع[1] فيها العلاج ، فإن كانت

---

(١) لم ينجع : أى لم ينجح .

مكتسبة بصحبة الأدنياء، أو لغلبة الطبع والهوى ، فعلاجها قريب .

وذلك من وجوه ، منها : مقاطعة أهل الدناءة أنفة منهم ، ومواصلة أرباب الهمم العالية . ثم التفكر بالعواقب ، ومآل الدناءة ، ومصير أولى الجد والاجتهاد ، كما قال عبدالصمد : مات رجل من السعاة ، وقد بقى له شرط ، والناس يقولون له : مت اليوم تحى أبداً . فانتبهت بها .

ومن تفكر فى المرتفعين فى الهمم علم أنهم كهو من حيث الأصلية والآدمية ، غير أن حب البطالة والراحة جنيا عليه فأوثقاه ، فساروا وهو قاعد ، ولو حرك قدم العزم لوصل ، قال الشاعر :

إذا أعجبتك خصال امرىء فكنـه تكن مثل ما أعجبـك
فليس على الجود والمكرمـات إذا جئتها حاجباً يحجبـك

ومن نظر فى أخبار السلف رأى عموم الفقهاء والعلماء ، وأكثر المشار إليهم بذلك من الموالى ومن الضعفاء وأهل الحرف الدنية ، إلا أن الهمم أثرت فأثارت عن موطن .

ولو تفكر أرباب الهمم الدنية فى عواقبها ، وما يجىء عليهم لرأوا البطالة عدواً ، وإنما صحبوا دناءة الهمة تعجلاً للراحة وما يلقونه من الحسرات على فوت الفضائل والسقوط من أعين الناس والإهانة بهم أعظم من كل كرب وشدة .

وما يناله أرباب التعب من الراحة فى تعظيم الخلق لهم وارتفاع قدرهم فى الدنيا قبل الآخرة ينسى مرارة كل نصب . فكأنه ما تعب من استراح ، ولا استراح من تعب .

بسنده إلى أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ، فيصبغ فى النار صبغة ، ثم يقال له : ياابن**

آدم ، هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرت بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ما مر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط »[1] .

وبيان هذا أن التعب ينقضى ، وتبقى الراحة ، والراحة تذهب ، وتبقى الحسرة ، والمقام موسم ، والفوات معترض ، والاستلاب عاجل ، وفى بعض هذا إزعاج للمتوانى .

(٢٥) رياضة النفس

الأصل فى الأمزجة الصحة ، والعلل طارئة ، وكل مولود يولد على الفطرة . ويوضح ما قلناه أن الرياضة لا تصلح إلا فى نجيب ، والكودن لا تنفعه الرياضة ، والسبع وإن ربى صغيراً لا يترك الافتراس إذا كبر . وقد عرفت تلك الحكاية : (فمن أنباك أن أباك ذئب) واعلم أن فى الإنسان قوى ثلاثة : قوة ناطقة ، وقوة شهوانية ، وقوة غضبية ، فينبغى لمن شرفه الله تعالى بحب العلم أن يعتنى بتكميل النفس الناطقة التى فضل الله تعالى بها على سائر الحيوانات ، وشارك بها الملائكة ، فيجعلها هى المسلطة على القوتين الأخريين ، أعنى الشهوانية والغضبية ، لتكون منزلتها فى البدن بمنزلة الراكب للفرس ؛ فإن الفارس ينبغى أن يكون هو المسلط على الفرس لاستعلائه ، فيمضى بها أين يشاء ، ويعقها إذا شاء . فكذلك ينبغى أن تكون القوة

---

(١) حديث .

الناطقة هى المستعلية على باقى القوى ، تستعملها كما تحب ، وتكفها حين تحب .

ومن كان كذلك استحق أن يسمى إنساناً حقيقة ، قال أفلاطون : الإنسان بالحقيقة من كانت نفسه الناطقة أقوى الأنفس ؛ لأن الشهوانية إذا أفرطت خرج الإنسان إلى طبع البهيمية ، ومن سيب هواه فى مرعاه ، وجعل حبله على غاربه ، فقد خرج عن مركزه ، فصار أخس من البهائم ؛ لأن تلك تمضى بطباعها . وهذا قد خالف طبعه . ومتى أفرطت القوة الغضبية خرج الإنسان إلى أخلاق السباع والضوارى . فينبغى أن يروض نفسه بمخالفة الشهوانية ، ويكسر الغضبية ، ويتبع القوة الناطقة ؛ حتى يتشبه بالملائكة ، ويتحرز من عبودية الشهوة والغضب .

فصل

واعلم أن الرياضة للنفس تكون بالتلطف ، والتنقل من حال إلى حال ، ولا ينبغى أن يؤخذ أولاً بالعنف ، ولكن بالتلطف ، ثم يمزج الرغبة والرهبة .

ويعين على الرياضة صحبة الأخيار ، والبعد عن الأشرار ، ودراسة القرآن ، والأخبار ، وإجالة الفكر فى الجنة والنار ، ومطالعة سير الحكماء والزهاد .

وقد كان بعض السلف يشتهى الحلواء فيعدها لنفسه ، فإذا صلى بالليل أطعمها .

وكان الثورى يأكل ما يشتهى ، ثم يقوم إلى الصباح ، ويقول : أطعم الزنجى ولده . وما زال المحققون يلطفون بنفوسهم إلى أن ملكوها فقهروها .

وقال بعض جيران مالك بن دينار : سمعته ليلة يقول لنفسه : هكذا فكونى ، فلما أصبحت قلت له : ما معك فى الدار أحد فلمن قلت ؟ قال : إن نفسى طلبت منى أدما[1] وألحت ، فمنعتها الطعام ثلاثة أيام ، فلما كانت الليلة وقد انقضت الأيام وجدت كسرة يابسة ، فبادرت إليها ، فقلت : قفى آتيك بخبز لين ، فقالت : قنعت بهذه . قلت : هكذا فكونى .

واعلم أنه إذا علمت منك النفس الجد جدت ، وإذا عرفت منك التكاسل طمعت فيك ، كما قال الشاعر :

ويعرف أخلاق الجواد جواده فيجهده كراً ويرهقه ذعراً

ومن الرياضة لها محاسبتها على كل فعل وقول ومحاسبتها فى كل تقصير وذنب ، فإذا تمت رياضتها حمدت ما ذمت من تعبها ، قال ثابت البنانى : كابدت الليل عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة .

وقال أبو يزيد : مازلت أسوق نفسى إلى الله تعالى وهى تبكى حتى سقتها وهى تضحك . وفى هذا المعنى قول الشاعر :

مازلت ابكى كلما نظـرت

إلى أن اختضبت أجفانها بدمى

وبعد هذا فلا ينبغى أن ينسى حقها ، فإن من حقها إعطاءها حظوظها التى لا تقدح فى مقصود الرياضة ، فإنها إذا منعت مقاصدها فى الجملة عمى القلب ، وتشتت الهم ، وتكلف التعبد .

واعلم أن قدر النفس عند الله سبحانه أعظم من قدر العبادات . ولهذا أباح الفطر للمسافر ، وإنما يعقل هذا العلماء .

---

(١) الإدام : ما يستمرأ به الخبز .

(٢٦) ذكر رياضة الاولاد

أقوم التقويم ما كان فى الصغر ، فأما إذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعباً ، قال الشاعر :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت
ولا يلين إذا قومته الخشب
قد ينفع الأدب الأحداث فى مهل
وليس ينفع فى ذى الشيبة الأدب

ثم المواظبة على الرياضة أصل عظيم ، خصوصاً فى حق الصبيان ، فإن ذلك يفيدهم أن يصير الخير عادة ، قال الشاعر :

لا تسه عـن أدب الصغيـ ـر وإن شـكا ألم التعـب

واعلم أن الطبيب ينظر إلى سن المعالج ومكانه وزمانه ، ثم يصف ، فكذلك ينبغى أن تكون رياضة كل شخص على قدر حاله .

وأمارة فلاح الصبى وفساده تتبين من طفولته ، فالنجيب منهم يتنبه بالتعلم ، والذى ليس بنجيب لا ينفعه التعلم ، كما لا يصير الهجان بالرياضة نجيباً ، وينبغى أن يتلطف بالصبى ، قال رجل لسفيان الثورى : نضرب أولادنا على الصلاة . قال : بل بشرهم .

وكان زبيد اليافى يقول للصبيان : من صلى منكم فله خمس جوزات .

وقال إبراهيم بن أدهم : أى بنى اطلب الحديث ، فكلما سمعت حديثاً فلك درهم ، فطلب الحديث على هذا .

فصل : كيفية تربية الطفل

وليعلم الوالد أن الولد إمانة عنده ، فليجنبه قرناء السوء من الصغر ، ولا يعوده ، وليلق إليه الخير ، فإن قلبه فارغ يقبل ما يلقى إليه ، وليحبب إليه الحياء والسخاء ، وليلبسه الثياب البيض ؛ فإن طلب الملون قال له : تلك ملابس النساء والمخانيث .

وليبادر بأخبار الصالحين ، وليجنبه أشعار الغزل ؛ لأنها بذر الفساد ، ولا يمنع من أشعار السخاء والشجاعة ليمجد وينجد ؛ فإن أساء تغافل عن إساءته ، ولا يهتك مؤدبه ما بينه وبينه من الستر ، ولا يوبخ إلا سراً ، ويمنع من كثرة الأكل والنوم ، ويعود الخشونة فى المطعم والمفرش ؛ فإنه أصح لبدنه ، ويعالج بالرياضات الجسمانية ، كالمشى ، ويؤدب بالنهى عن استدبار الناس ، والامتخاط بينهم ، والتثاؤب ؛ فإذا علقت به خلة قبيحة بولغ فى ردعه عنها قبل أن تتمكن .

ولا بأس بضربه إذا لم ينفع اللطف ، فقد قال لقمان لابنه : يابنى ضرب الوالد للولد مثل السماد للزرع .

وإذا رآه عرماً فى صغره ، فليتلطف به ، فقد قال ابن عباس : عرامة الصبى زيادة فى عقله .

فصل : عدم ضرب الابن بعد بلوغه

وكان الحكماء يقولون : ابنك ريحانتك سبع سنين ، وخادمك سبع سنين ، فإن صار ابن أربع عشرة سنة ، فإن أحسنت إليه فهو شريكك ، وإن أسأت إليه فهو عدوك .

ولا ينبغى أن يضرب بعد بلوغه ، ولا أن يساء إليه ، لأنه حينئذٍ يتمنى فقد الوالد ليستبد برأى نفسه ومن بلغ عشرين سنة ولم يصلح فبعيد صلاحه إلا أن الرفق متعين بالكل .

(٢٧) رياضة الزوجة ومداراتها

من المتعين المبالغة فى النظر به هذا الباب ، فأصلح الأمور أن يتزوج الرجل البكر التى لم تعرف سواه ، فقد قالت الحكماء : البكر لك ، والثيب عليك .

إلا أنه من أعظم الغلط أن يتزوج الشيخ الكبير طفلة ؛ فإنها تصير كالعدو ، ولكنه يحبسها عن أغراضها ، ولا تقدر أن تفى مرادها ، وهى تنفر عن الشيخ طبعاً . فإن ابتلى الإنسان بذلك ، فليسم بغضه عندها بحسن خلقه واحتماله وكثرة الإنفاق عليها .

وقد أمعنا الشرح لهذه الجملة فى كتاب الشيب ، وينبغى أن يتزين لها كما يحب أن تتزين له ، ويستر جسده عنها ، فلا ترى منه إلا المستحسن ، وكذلك ينبغى لها أن تفعل .

فصل : عدم إعطاء الزوجة أمواله كلها

ولا ينبغى للرجل أن يمزح مع المرأة ، فتطمع فيه طمعاً يخرجها عن طاعته ، ولا أن يسلم ماله إليها فيصير هو كالرهن فى يدها فربما استغنت ، واستوثقت لنفسها ، ثم تركته . وقد قال الله تعالى : ﴿ **ولا تُؤتوا السُّفهاءَ أموالكمُ التى جَعَلَ اللهُ لكم قِيامَاً** ﴾[1]، بل ينبغى أن يمزح بنوع من الهيبة .

---

(١) النساء : ٥ .

فصل : إصلاح المرأة

وأكثر العلاج فى إصلاح المرأة منعها من محادثة جنسها ، ومن خروجها من بيتها ، واطلاعها من ذروته ، وأن تكون عنده عجوز تؤدبها، وتلقنها تعظيم الزوج ، وتعرفها حقوقه ، وتعظم قليل الإنفاق عندها ، وتكون كالحافظ ، فإن عقل الصبى مأفون[1] .

فصل : المرأة المناسبة للشيخ

وإن وجد الشيخ امرأة قد خرجت عن زمان الصبا ، ولم تدخل فى الكهولة ، كانت أصلح ، وأطيب لعيشه ، وأقل امتناناً عليه ، وأكثر توقيراً له .

فصل : زواج الشاب

فأما الشاب ، فإنه يدل ولا يذل ، فإذا أراد التمتع بالنساء ، فالرأى له إن كان له مكنة اشترى الجوارى الصغار ، فإنهن لم يعرفن الغيرة ، وهى قليلة عندهن لموضع الملكة ، وقدرته على الاستبدال والبيع ، ولتكن معهن حافظة ، ولتكن على الحافظة حافظة .

فصل : كثرة النساء

ومن رزق امرأة على مراداته ، فليهب ما فات لما حصل ؛ فإن الأصول إذا كانت محفوظة لم تذكر الفروع ، وكثرة النساء تحتاج إلى مؤنات عظام ، أقلهن حفظهن .

---

(١) مأفون : أى ناقص .

(٢٨) رياضة الأهل والمماليك ومداراتهم

اعلم أن الأهل إذا رأوك قد فقتهم بمال أو جاه حسدوك ، ومقاطعتهم محرمة ، فالمداراة لازمة ، وذلك بالبر لهم مع كتمان بواطن الأحوال عنهم .

ومن أعظم الغلط حرمان بعضهم ، وإعطاء البعض ، فمن اختار ذلك فليجتهد فى إسرار الأمر لئلا يشترى بالمنع البغض .

وأما الماليك فإنهم مالكون على الحقيقة لمالكيهم ؛ لأن المطاعم والمشارب إليهم ، فينبغى أن يتلطف بهم لئلا يحتالوا على القتل . قال بزر جمهر : نحن ملوك على رعيتنا ، وخدمنا ملوك على أرواحنا ، ولا حيلة لنا فى الاحتراز منهم ، فنحن نداريهم .

وليجعل الملك مع اللطف بهم هيبة إلا أن البر لهم يكون أغلب ، وأكثره فى حق من يسلم إليه الروح ، وهو صاحب المطعم والمشرب .

واعلم أن المماليك وإن كانوا أهل ذكاء وفطنة يستتر منك عنهم شيء ، فربما احتالوا عليك . وإن كانوا أهل غباوة لم تبلغ غرضاً فى استخدامهم ، لأنك تريد الشيء فلا يفهمون مرادك .

والصواب استخدام أهل الغفلة منهم فى الدواخل ، وأهل الذكاء منهم خارج البيت فحينئذ تتم الأغراض .

فصل : الحذر من الصبى المراهق

ومن أعظم الغلط دخول المملوك المراهق إلى البيت ، خصوصاً

إن كان حسن الصورة ، وفى البيت نسوة ، فإن الشر لا يؤمن ، فإن سلمن من ميل إليه لم يسلم هو من ميل . وكذلك من باب المخاطرات ترك الولد البالغ بين الجوارى . ومعلوم أن قوة الشهوة وجهل الصبا ينسيان مقدار الحرمة والتحريم .

فهذه أصول ينبغى أن يداوى بداوئها ، ولا تمهل ؛ فإنها تجر أموراً صعبة .

(٢٩) معاشرة الناس ومداراتهم

لما كانت طباع الناس تختلف ، كانت مداراتهم لذلك صعبة ؛ فأصلح ما استعمل العاقل العزلة عنهم مهما أمكن ؛ فإنها راحة عظيمة ، فإذا اضطر إلى مخالطتهم خالطهم بالتلطف ، وإيفائهم الحقوق ، وإهمال حقه عليهم ، والحلم عن جاهلهم ، والعفو عن ظالمهم ، وإيثار متكبرهم بالمجلس .

ومن أعظم ما يملكهم به السماح والعطاء ، فإنه يسترق به من لم يكن ينقاد . وقد جاء فى الحديث « مداراة الناس صدقة »[1] .

فصل : كيف يتعامل العالم مع السفهاء ؟

وإذا ابتلى العالم بمخالطة العوام ، فينبغى أن يلبس جنة[2] الحذر ؛ فإن أغراضهم مختلفة ، يرضى أحدهم ما يسخط الآخر ،

(١) الطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، وعمل اليوم والليلة ، وابن السنى ، والقضاعى ، من حديث محمد بن المنكدر عن جابر ، وصححه ابن حبان ، كما قال السخاوى فى المقاصد الحسنة ، حديث رقم ٥٠٨ . دراسة وتحقيق الأستاذ / محمد عثمان الخشت .

(٢) جنة : أى سترة .

ويغضب من الصواب لأنه يراه خطأ ، ولا يقبل مع جهله أقوال العلماء .

فليبعد العالم عنهم ما استطاع ؛ فإن مخالطتهم تشينه تنقص من مقداره فى أعينهم ، فيهون علمه عندهم . ولو رآه عاص يضحك أو يأكل أو سمع أنه قد تزوج لم يبق له عنده قدر فالحذر منهم ؛ فإنهم قتلة الأنبياء .

فإذا اضطر إلى مجالستهم فليقلل الكلام معهم ، وليتكلم بما لا تسلق لهم به عليه ، ولا فيه احتمال لما لا يصلح لخطابهم ، وبعد هذا فالسلامة منهم طريفة .

(٣٠) ذكر السيرة الكاملة

علامة الكامل تربية القدرة له من الطفولة ، وإعطاؤه الرأى التام ، والعقل الوافر من الصغر ، كما قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل** ﴾[١] ، وتخلق له همة عالية وشرف نفس ، فتحمله على طلب المعالى ، وتمنعه ركوب الدنايا ، فتنزله فى نكبه يحب أن يكون رئيس الصبيان ، فإذا ترعرع كان الأدب شعاره من غير تعلم ، والحياء لباسه من غير ترهيب .

وأقل الرياضة فيه يؤثر كما ينفع المسن الفولاذ ، ولا ينفع الحديد ، فإذا عقل واستدل على صانعه ، وعلم لماذا خلق ، ونظر بماذا خوطب ، وإلى أين يصير ، وما المراد منه ، شمر عن ساق وساق ، فيطلعه العلم على حقائق الأمور ، فيرى أن أفضل الأشياء ما يقربه

(١) الأنبياء : ٥١ .

من خالقه ، ثم يرى أن أقرب ما يقرب به العلم والعمل ، فيجتهد فى إكمالها على غاية ما يطيق منهما بدنه ، وينهض النية والعزيمة بحمل الباقى .

وأنت ترى خلقاً يقتصرون على بعض فنون العلم ، فهذا مع النحو جميع عمره ، وهذا مع الحديث طول دهره ، وهو يرى أن كل العلوم مقصود ، غير أنه لما علم أن العمر لا يسع الكل ، أخذ ما يحتاج إليه من الكل زاداً لمسيره ، ونهض للعمل بمقتضاه ، فتراه ينتهب العمر خوف أن يذهب ، وما نال المراد ، ولا يضيع لحظة فى غير مهم ، وينافس نفسه فى زمان المطعم والنوم لعلمه بقصر المدة ، كما قال الشاعر :

فاقضوا مآربكم عجالاً إنما أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل السباق وبادروا أن تسترد فإنهن عوارى

فهو أبداً يجتهد فى عمارة وقته ، ويقهر هواه لإصلاح أمره ، ويقطع من العلم مهمه ، فقلبه مشغول عن اللهو بتصحيح قصده ، وجوارحه مقبلة بالجد على طاعة ربه ، وقد اقتنع بما رزقه الله عن منن خلقه ، وعف عن أموالهم حفظاً لعرضه فسادهم لغناه عنهم ، وأزال فسادهم بوعظه ؛ فإن عاملهم فبالانصاف لم يأخذ عليهم بفضله ، وإن استشاروه اجتهد فى نصحهم على أنه مشغول عن الكل بنفسه متأهب للنقلة ، همه جمع رحله يؤدى إلى كل لحظة فرضها من الحراسة بقوى لربه ، ويستظهر بكثرة الزاد لعلمه طول شوطه .

ثم يجتهد فى تهذيب العلم فى حياته ليحيى به أثره بعد موته ، وقد زهد فى الدنيا ، ولا يتناول إلا قوت وقته ، فإن فسح لنفسه فى مباح فمراده تقوية جمله على حمله ، ثم لم يزل به عرفان خالقه ، حتى دعاه

إلى حبه ، فانصب الصب ، وانخرط فى سلكه ، فهو بين الخلق بجسمه ، وعند الخالق بقلبه .

أولئك ريحان الله فى أرضه نفوس انفاس المريدين باستنشاق ريح أحدهم وبلفظه ويفوح نشر صدقهم بعد دفن راجلهم فى لحده ، وقد ألبست قبورهم هيبة تخبر عن كل بقدره ، وإذا ذكرت أعمالهم يقوى بها المريد فى طريق صبره ، والمتقون فى فلك القيامة نجوم ، وهم كشمسه أو كبدره ، رزقنا الله وفاقهم ، ووهب لنا لحاقهم ، وألبسنا اخلاقهم بسعة فضله ؛ إنه سميع قريب من عبده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

* * *



الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

رقم الايداع ٣٦٢٥/ ٨٧

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت ، ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١

